مهزومون وثوريون (1919 ـ 1923)

لخص لينين، على هامش ملاحظاته عن كلاوزيفيتز، عقيدة أستاذه في الكلمات التالية: «حق المهزومين في الثورة».

هنري رولين: روسيا البلشفية وألمانيا

انفجرت الثورة يوم 7 تشرين الثاني 1918 في عاصمة مملكة بافاريا فأسقطت السلالة الفيتلزباخية عن العرش، وأعلنت الجمهورية في الثامن من تشرين الثاني، يوم مولد نيدرماير، وسمي الناقد المسرحي المبدع كوت إيسنر، الاشتراكي اليساري، الذي كان اسمه الأصلي كوسمانوفسكي وتحدر من سيليزيا، رئيس وزراء بافاريا. وتشكلت في ميونيخ «لجان عمال وجنود وفلاحين»، أسوة بما حدث في روسيا البلشفية.

عندما عاد نيدرماير إلى منزل أسرته في شفابينج، كان عالم طفولته وشبابه قد زال. وكانت بافاريا الملكية وعاصمة عصر ولي العهد البهية مجرد ذكرى بعيدة، بينما انهار الجيش القديم وعاد الجنود المرضى والجرحى، والغارقون في الفوضى واليأس، من الجبهة، وغطت أوروبا نزلة صدرية وبائية الطابع، أخذت أبعادا لم يعرفها أحد من قبل، سقط كثيرون في ميونيخ ضحايا لها. وجد نيدرماير مأتما في انتظاره في شارع الأينميلر رقم 7، فقد قتلت لويزه، شقيقته الأصغر وطالبة الطب الواعدة، يوم 13 تشرين الثاني،

بعد خمسة أيام من انفجار الثورة، في حادث وهي في الثالثة والعشرين.

فرسان دون ملك

كانت العاصمة البافارية تغلي في شتاء عام 1918، فقد أحدثت الهزيمة والثورة فراغا روحيا سرعان ما أخذ يمتلئ. كان الشيوعيون السبارتاكيون في لجان العمال والجنود ينشرون الاضطراب والفوضى، وقد أرعبت أنشطتهم المدينة خلال شهري كانون الثاني وشباط من عام 1919. أما على الجانب الآخر من الطيف السياسي، فبدأت القوى المضادة تنظم نفسها، لكنه لم يكن من جزءا من الثورة المضادة، عندما عقدت مجموعة صغيرة من ضباط الجيش البافاري ذوي الرتب الرفيعة لقاء سريا جدا في السابع عشر من شباط عام 1919.

كان اللقاء السري الذي عقده سبعة من أعلى حملة وسام الشجاعة البافاري يمكن أن يتم في ظل الملكية أيضا، خاصة وأن محضر اجتماعهم يخلو من أية إشارة إلى الحرب الخاسرة، والثورة التي حدثت قبل قليل، ووضع المدينة المتوتر. ليس في المحضر إشارة إلى أن الجوع واليأس كانا يطبعان حياة العاصمة بطابعهما في شباط من عام 1919، بل ركّز فرسان أخوية ماكس جوزيف الملكية البافارية العسكرية على نقطة واحدة هي قبول أعضاء جدد[1].

احتلت الأخوية التي أسسها الملك ماكس جوزيف في الأول من آذار عام 1806 أهمية خاصة بالنسبة لمملكة بافاريا، جعل القبول في حلقتها الممتازة اعترافا على درجة عظيمة من القيمة بالنسبة إلى من عرف بشجاعته في الحرب من الضباط. وكان الانضمام إلى الأخوية مرتبطا منذ عام 1812 بالنبل الشخصي وبحق حمل لقب فارس، لذلك خضع من قبل فيها إلى

1. أرشيف الحرب في ميونيخ، الملفات الشخصية، 15/ 4.

امتحان صارم سمي «اختبار الفرسان»، لأنه لم يكن أرستقراطيا بالمولد، بل دان بنبالته لشجاعته الشخصية، وتعينت مرتبته الاجتماعية بأفعاله.

عكست الأخوية الملكية البافارية روح عام 1806 الذي تأسست فيه، وهي روح عصر ثوري ارتبط بنهاية الرايش القديم والتغيير الجذري الذي عرفته ظروف ألمانيا السياسية على يد نابليون، وأدى إلى إلغاء امتيازات قديمة في بافاريا أيضا وإعلان مساواة جميع مواطني الدولة أمام القانون. وقد أراد الملك بتأسيس الأخوية تشكيل نخبة فاعلين متحررة من الأحكام المسبقة الدينية والطبقية، أسوة بما هو موجود في فرنسا، يرتبط فيها التقليد التنويري للجمعيات السرية مع الإيمان بتقدم ينهض على المساواة تميز به القرن الثامن عشر. إلا أن المؤسس حمل في الوقت نفسه حماسة أخويات فرسان العصور الوسطى الرومانسية: وثمة صلاة سنوية تتلى حتى اليوم على أرواح الأموات من أعضاء الأخوية.

عندما صوت أعضاء الأخوية يوم 17 شباط من عام 1919 على قبول أوسكار نيدرماير، كان لكل واحد من الضباط الحاضرين صوتا واحدا، بغض النظر عن رتبته العسكرية ومنبته الاجتماعي. وقد وضعت أمامهم تقارير شخصية كتبها أعضاء بعثة أفغانستان، وتقويمات رسمية أرفقت بمحضر الاجتماع، بينها كتاب رسمي من القسم السياسي في الأركان العامة وصل يوم 10 تشرين الأول عام 1917 «يحبذ بقوة» منح نيدرماير وساما رفيعا، لأن المقدم كورت فاجنر تحدث بعد عودته يوم 24 نيسان 1918 من أفغانستان عن «عمل نيدرماير الباسل الفريد من نوعه في هذه الحرب»، وشهد له بـ«شجاعة شخصية خارقة لا تخاف شيئا، وبصلابة استثنائية». بل أن فون هانتيج نفسه كتب يوم 5 تشرين الثاني عام 1917 الجملة التالية في اسطنبول: «... إذا ما قومنا إنجاز نيدرماير حسب أهدافه ونجاحاته العسكرية المباشرة، لوجدنا أن نشاطه ينتمي بالتأكيد إلى أثمن ما عرفته الحرب كلها».

نجح نيدرماير في: اختبار الفرسان وقبل في الأخوية بخمسة أصوات مقابل اثنين. وقد أيد قبوله الجنرال الفارس فون ياجر، والجنرال الفارس فون كيفهابر، والجنرال الفارس فون كونسمان، والمقدم الفارس فون شلايش، والملازم أول الفارس فون هوفمان، واقترع ضده رئيس الأخوية جنرال الخيالة الفارس فون شميدت، والعقيد الفارس فون شتاوبفاسر، بحجة أن بعثة أفغانستان كانت مشروعا ذا طبيعة سياسية غالبة، وأن من المشكوك فيه أن يكون «نيدرماير قد ترك أثرا حاسما في أية أعمال عسكرية». كما رأى رئيس الأخوية في موقف فون هانتيج تقويما سلبيا بالأحرى. لكن الأغلبية كانت مقتنعة «بثبات نيدرماير وبرودة أعصابه وشجاعته الخارقة». وذكر الرئيس الحاضرين بعد نهاية الاقتراع أن شرفهم يلزمهم بالحفاظ على أقصى درجات السرية في كل ما يتعلق بالاجتماع والتصويت. منذ تلك اللحظة، صار نيدرماير فارسا دون ملك.

سيطرة اللجان في ميونيخ

أعلنت وزارة الشؤون الحربية في جمهورية بافاريا في 21 شباط عام 1919 أن أوسكار نيدرماير صار منذ 5 أيلول 1916 عضوا في أخوية ماكس جوزيف. وفي اليوم ذاته، وقع اغتيال رئيس الوزراء كورت أيسنر على يد الملازم أنتون جراف فون أركو في شارع بارتنر وهو في طريقه إلى البرلمان. زاد الاعتداء استقطاب وتطرف أهالي ميونيخ، فاستولت «لجان العمال والجنود والفلاحين» على السلطة، وفرضت حالة الحصار، وأعلنت قيام «جمهورية السوفييتات» والإضراب العام. كما احتلت المباني العامة المهمة وأخذت كرهائن ضباطا رفيعي المراتب ومدنيين بينهم نساء.

أعلنت جمهورية بافاريا السوفياتية في 7 نيسان انضمامها إلى جمهورية المجر السوفياتية وروسيا، وقطعت علاقات بافاريا مع برلين. كم تغير الوضع: لم يكن قد مضى عام واحد، منذ لفت نيدرماير في إحدى مذكراته

أنظار قيادة الجيش العليا إلى إمكانات ألمانيا الاستراتيجية في آسيا الوسطى، يشجعه على ذلك مرابطة وحدات بافارية إلى ما قبل أشهر قليلة في جورجيا، التي قرر برلمانها تقديم طلب انتساب إلى الرايش الألماني. لقد انقلبت الصفحة الآن، وأعلنت جمهورية ميونيخ السوفييتية خروج بافاريا من الرايش وانضمامها إلى روسيا البلشفية. وفكر استراتيجيو الثورة العالمية البلشفيون الآن باستخدام مقولات جيوسياسية شبيهة بتلك التي استخدمها لودندورف وسيكت ونيدرماير قبل عام. وقد فكت إدارة لاسلكي الرايش في برلين رسالة لاسلكية صبيحة يوم 27 نيسان 1919[2]، صاغت موسكو فيها تعليمات واضحة إلى بيلا كون تفصح عن آمال قادة البلاشفة في انتصار الثورة العالمية رغم صورة الوضع المحيرة، وقالت إن عقد الهدنة يوم 11 تشرين الثاني ليس نهاية العنف والحرب، بل رأت، على العكس من ذلك، فرصة لطالما انتظرتها لتحقيق استراتيجية لينين، وقلب الحرب العالمية إلى حرب أهلية عالمية تتحقق في مجراها أهداف استراتيجية واضحة. لا تترك البرقية، التي حملت توقيع تشيشيرين وتم فك رموزها بصورة تامة تقريبا يوم 27 نيسان 1919، أي شك في أهداف موسكو: بعد الانتصار المأمول للثورة السوفييتية في فيينا، سيقود «ممر أحمر» مفتوح من روسيا السوفييتية إلى وسط أوروبا، مرورا بغاليسيا وجمهورية المجر السوفييتية وبافاريا الشيوعية.

لم تتجه خطط موسكو الثورية نحو الغرب وحده، بل انصبت كذلك على الشرق. وقد قرأت برلين كيف أدرج تشيتشيرين قتل أمير أفغانستان حبيب الله في سيناريو الثورة الكبرى: «إن الانقلاب في أفغانستان يعني قلب العناصر الصديقة لبريطانيا. لن يكون الانفجار بعيدا في الهند، وإذا لم تتصرف بريطانيا بعقلانية، يمكن لشيء... (لم ينجح المختصون في فك

2. وهي برقية أرسلها تشيتشرين إلى بيلا كون يوم 27 نيسان 1919 وقوّم نصها فون هانتيج يوم 22 أيار 1919. أرشيف وزارة الخارجية، رقم 17596.

رموز هذا المقطع من النص ـ ملاحظة المؤلف). كما تشكلت لجنة مركزية للشرق الثوري في تركيا. التوقيع تشيتشرين».

طلبت وزارة الخارجية في برلين من فيرنر أوتو فون هانتيج تقويم البرقية، فأكد أن الحكومة السوفييتية تقوم فعلا بجهود جبارة من أجل إقامة اتصال سياسي مع الهند عبر أفغانستان. لتحقيق هذه التطلعات، وجد البلاشفة في الثوريين الهنود، الذين فروا إلى كابول، مساعدين فاعلين. تذبذب تقويم هانتيج بين الواقعية والتوقع المفعم بالآمال، وقال: «أنا على اقتناع أنه سيكون من السهل على إنجلترا التدخل عسكريا في أفغانستان، لكنه لدي من الجانب الآخر أمل بأن الحركة التي ستنطلق من هناك، وأخص بالذكر السلافية منها، ستكون لها آثار ثورية عميقة في الهند قبل كل شيء».

هذه «الآثار الثورية العميقة»، التي علق فون هانتيج آماله عليها، كان يجب إزالتها أول الأمر من بافاريا وليس من أي بلد سلافي، وذلك أمر كان مستحيل الحدوث دون معاونة الجيش المتداعي. وصل أوسكار نيدرماير في التاسع والعشرين من نيسان 1919، بعد يومين من قراءة برقية تشيتشيرين في برلين، إلى وحدة الرماة البافاريين «إيب»، التي تكونت من متطوعين وضمت نخبة المجموعات الحرة، وتشكلت من قرابة 700 رجل كان معظمهم أعضاء في فوج الحراسة الملكي السابق بإمرة القائد السابق العقيد فرانز ريتر فون إيب.

كان الأول من أيار عام 1919، يوم نضال الطبقة العاملة العالمي، باردا وغائما. وكانت السماء مغطاة بغيوم سوداء، بينما غطت طبقة رقيقة من الثلج شوارع العاصمة البافارية القذرة. طوقت الوحدات الحرة ميونيخ يوم 30 نيسان 1919، ثم تقدمت وردت الحرس الأحمر الثوري إلى ميادين قليلة، حيث دافع الشيوعيون حتى ساعات فجر يوم 2 أيار بعناد عن الميدان الواقع عند بوابة سيندلينج، قبل أن تنجح الوحدات الحرة في تحويل الموقف

لصالحها ببطء. ثم تجددت عند الفجر اشتباكات متفرقة قرب محطة القطار وفي ميدان كارل. ولم يتم احتلال جيزينج، القسم العمالي من المدينة، إلا بعد قتال عنيف. في المساء، كانت ميونيخ خالية من البشر، بلا أضواء، وقد بقيت حوانيتها مغلقة، بينما غطى أرصفتها حتى أعلى القدمين الزجاج المكسر وحطام واجهات البيوت، وعاشت المدينة تحت رحمة الوشايات وعمليات الإعدام. بما أن الشيوعيين كانوا قد قتلوا الرهائن بدم بارد، فقد قتل المنتصرون الآن الأبرياء رميا بالرصاص، وصفّت قوات «أيب» تساعدها مجموعة من وحدات بايرويت الحرة، 21 عضوا في نادي شبان سانت جوزيف الكاثوليكي في قبو النادي، الواقع على ميدان كارولينن[3].

ليس ممكنا إعادة بناء تفاصيل الدور الذي لعبه نيدرماير مطلع عام 1919، وإن كان الرأي العام قد عرف جوانب متفرقة منه. لقد تحدث يوم 23 كانون الثاني عام 1919، عقب عودته من الحرب، أمام الجمعية الجغرافية في قاعة البورصة الجديدة الكبيرة عن «أفغانستان ـ سياسة وجغرافيا: البعثة الألمانية». ومنح إجازة دراسية في جامعة ميونيخ منذ الأول من شباط عام 1919، فشرع يكتب أطروحة دكتوراه حول «الأحواض الداخلية في الهضبة الإيرانية»، رغم الفوضى السياسية التي كانت سائدة. بعد الهزيمة والثورة، بحث مجتمع أضاع توجهه عن أجوبة علمية على أسئلة زمانه الملحة، فانتقد ليبراليو ميونيخ أول الأمر الظهور العلني للجيوسياسيين»: «انضمت منذ بعض الوقت إلى أنبياء النزعة التاريخية المتطلعين دوما إلى الخلف زمرة متعصبة من الجيوسياسيين، تعد نفسها بالخلاص بفضل زيادة ساعات تدريس الجغرافيا».

أحست برجوازية ميونيخ أنها تحررت من كابوس، بعد دخول

3. حول تدمير حكم السوفييت والأعمال الانتقامية التي قامت بها المجموعات الحرة، انظر: مؤسسة الجيش لأبحاث تاريخ الحرب. تدمير حكم السوفييت في ميونيخ عام 1919.

المجموعات الحرة إلى المدينة. وسجل توماس مان في 5 أيار 1919 بسعادة أن الأعلام الحمراء اختفت عن مقر الحكومة، وأنه كانت تعزف قرب بوابة النصر موسيقى نشيد «ألمانيا، ألمانيا، فوق كل شيء». وكتب: «دخلت مجموعة «إيب» بأحسن انضباط، فاستقبلت بتهليل عظيم». ووجد «أن المدينة تنفست تحت الدكتاتورية العسكرية بحرية أكبر بكثير منها في ظل سيطرة الغوغاء». عندما كتب هذه الأسطر، شعر حامل جائزة نوبل اللاحق بشيء من الهدوء. وكان قبل قليل من ذلك قد ملأ يومياته بنوبات كره لا سامية تتفق والعالم الفكري لعريف الحرب العالمية المحطم (هتلر ـ المترجم ـ)، الذي كان يتسكع في ميونيخ خلال تلك الأيام المضطربة.

تجسدت مطلع أيار من عام 1919 أمام عيني المواطن توماس مان صورة عن العدو الذي أراد إبادته: «تحدثنا أيضا عن طاعون اليهودي الروسي، قائد الحركة العالمية، الذي هو خليط محشو بالمتفجرات من راديكالية يهودية ثقافية ونزعة رغبية مسيحية سلافية، وآمنا أن عالما يمتلك غريزة حفظ البقاء يجب أن ينقض بكل ما فيه من طاقة يمكن تعبئتها وفي أقرب وقت ممكن على هذا الطراز من البشر»[4]. وبالفعل، فقد شنق أويجن لوفينه، آخر قادة الجمهورية السوفييتية البافارية، الذي ولد في بطرسبرج وشارك في الثورة الروسية الأولى عام 1905، وصار فيما بعد طالبا في جامعة هايدلبرج وعضوا مؤسسا في حزب ألمانيا الشيوعي، في حزيران من عام 1919 وهو على إيمانه بالثورة العالمية.

نشط أوسكار نيدرماير سياسيا وعسكريا وروحيا لصالح الثورة المضادة أثناء الأشهر الأولى من عام 1919. وكتب عام 1935 مذكرة سرية موجهة إلى رودولف هيس بدد بها شبهة أنه كان بلشفيا أو تعاطف مع البلاشفة[5]. زعم

4. توماس مان: حياة في برلين، الطبعة الثانية، زيوريخ 1994، ص 256.
5. انظر الوثيقة رقم 5.

نيدرماير إنه انتسب مطلع عام 1919 إلى جمعية سرية في ميونيخ تولت التحضير لدخول المجموعات الحرة إلى المدينة. وبالفعل، يبدو أنه لعب دورا غير هامشي في قهر الجمهورية السوفييتية، ذلك أنه تولى قبل دخول المجموعات مباشرة مركز التجنيد التابع لإيب في العاصمة. ثم قاد بعد ذلك وحتى الخامس عشر من حزيران 1919 «مركز جيش الرايش» في نورنبرج. ولم يكن هناك مطلع عام 1919 أي شك في إخلاصه لدى العسكريين من قادة الثورة المضادة.

حين اتهم القضاء النازي نيدرماير في شتاء عام 1944/ 1945 «بتقويض قدرة الجيش»، وتوقع عقوبة الإعدام، تدخل لصالحه دكتور رودولف كومر، المستشار الوزاري في وزارة التربية، الذي شارك في محاولة تمرد هتلر عام 1923 وفي مسيرته نحو قاعة قادة الحرب[6]. قال كومر إن معطياته جعلته يعرف منذ سنوات أن هناك من يريد «اتهام نيدرماير بميول ودية حيال روسيا السوفييتية»، لكنه يتذكر أيضا لقاءه الأول معه مطلع عام 1919 في نورنبرج، حيث أسس آنذاك مكتب دعاية «في مطعم التمساح» لصالح مجموعة إيب، عندما هاجمته وجماعته بغتة مجموعة كبيرة من الشيوعيين: «عندئذ، وفي اللحظة الحاسمة، تدخل المقدم الذي كنت لا أعرفه شخصيا ومعه عدد قليل من الرجال الشجعان، وقاتل إلى أن أنقذني بالمعنى الحقيقي للكلمة. وإنني لمدين له منذ ذلك الوقت بحريتي وحياتي».

لم يكتف نيدرماير باستخدام قبضتيه ضد الحمر، بل سعى أيضا إلى الحوار السياسي معهم. احتفظت ذاكرة كومر بمقطع آخر من مشاهدات الفترة التي أمضاها في نورنبرج، فقد كان عليه تأسيس مركز دعائي في ثكنة بيرنشانس، الذي كان يحتله البحارة الحمر. عندما تقدم مع نيدرماير في

6. رسالة المستشار الوزاري د. رودولف كومر إلى المحامي د. ساك. برلين، 6 كانون الثاني 1945.

بذتيهما العسكريتين من باب الثكنة، انقض عليهما بحار أحمر غاضب وفي يده بندقية مهيأة لإطلاق النار. حين وصل إلى الضابطين، انتزع نيدرماير بندقيته من يده، فأصابت طلقته الجدار. عندئذ، بدأ حديثا سياسيا معه، فلم تمر غير لحظات قليلة حتى كان أول المتطوعين الملتحقين بنا. تذكر كومر أن نيدرماير: «أثبت جدارة استثنائية، وجعله عضوا متحمسا في عصبة حماية الألمان، التي شجعه على الانضمام إليها»، قبل أن يختفي طيلة قرابة عقد عن ناظري رفيق كفاحه وابن بلده البافاري.

الكسندر البروسي

أقامت برلين علاقات سياسية مع موسكو وكابول في العام ذاته الذي حوكم وأعدم فيه قادة جمهورية السوفييت في ميونيخ. أما اليد التي التقت عندها الخيوط الجديدة والقديمة، فكانت يد الضابط الأعلى في جمهورية فايمار، اللواء فون سيكت، الذي بدا في نظر محيطه فخورا ومتحفظا ومتعاليا، وجسَّد بالنسبة إلى نقاده، بنظارتيه الخاليتين من الإطار، الصورة النمطية السلبية لضابط الأركان العامة البروسي ورجل النزعة العسكرية الألمانية. بينما لاح هذا الإقطاعي العسكري بعادته الكوسموبوليتية كتوما ومحاطا بالألغاز بالنسبة إلى رئيسه السياسي، وزير حرب الرايش أوتو جيسلر. أضفى الانكماش على الذات مقرونا بالميل إلى إبقاء الآخرين بعيدين عنه شبهة المتسلط المتحفظ على فون سيكت، وجعل جيسلر يتذكر بخبث لقاء الجنرال مع قادة السياسة الخارجية في جمهورية فايمار، ويعبر عنه بالكلمات التالية: «شعرت أن من المضحك على كل حال أن يحرص شتريزيمان على الوقوف في حالة استعداد كلما رأى سيكت»[7].

جسَّد سيكت مزيجا متفجرا من الفكر والعنف وَسَمَ نخبة الأركان العامة

7. أوتو جيسلر: سياسة الرايش الحربية في عصر فايمار. شتوتجارت 1958، ص 287.

البروسية منذ أيام جيرهارد فون شارنهورست. وكان عضوا في وحدة حملت اسم القيصر الكسندر الأول هي فوج الكسندر ذو التقاليد الغنية، الذي شكلت ثكنته وسط برلين تجمعا هندسيا رائعا ضمها إلى الجامعة وجزيرة المتحف، علما بأن تقاليد أخوة السلاح البروسية / الروسية ظلت رفيعة المكانة في هذا الفوج، منذ حروب التحرير ضد نابليون. ومثلما شب فون سيكت سياسيا على تقاليد التعاون البروسي / الروسي، فإنه رأى في نفسه الوارث والخليفة الروحي لرؤساء الأركان العامة العظماء. لم يكن الجنرال، شأنه في ذلك شأن مولتكه والفريد جراف فون شليفن، رجل وحدات ميدانية، بل كانت الجندية في نظره وظيفة فكرية / روحية. واشترطت الاستراتيجية العظمى عنده الفكر الإنساني، والتربية الكلاسيكية: «القيادة على غرار العصر القديم»، ذلك كان عنوان المحاضرة التي ألقاها عام 1929 أمام اجتماع أصدقائه في ثانوية العلوم الإنسانية ببرلين ومقاطعة براندنبرج السنوي، وفيها قال بصياغات منهجية: «يحتاج الجندي بالذات إلى التأهيل الروحي وبعد النظر. وإذا كان لا يريد أن يتسطح ويغرق في الحرفية، فإنه سيحتاج إلى الاقتداء بنماذج كلاسيكية، وإلى تدريب نفسه على الانحناء أمام للقدر».

كانت «القيادة على غرار العصر القديم» تعني بالنسبة إلى فون سيكت «رحابة وعظمة الإرادة، القوة المحاطة بالأسرار، التي تسمح لنا أن نرى ونريد ونكوّن ما يتخطى الحدود المرسومة للإنسان العادي». ثم أن هناك موهبة خاصة هي «التشبع بما هو إلهي» ميزت رجال العصر القديم من أصحاب الإنجازات السياسية والعسكرية الكبرى. كما رأى سيكت في الاسكندر الأكبر، اسم شفيع الاسكندر الأول وفوجه الخاص، اكتمال ملك الجيش والقائد العسكري الملكي والنموذج النقي للفاتح ومؤسس الرايش. ذهب الاسكندر إلى الشرق من أجل أن يؤسس مملكة عالمية، وطرق طرقا عسكرية تكاد تكون غير سالكة في أيامنا أيضا، ومر الذي قاده إلى تخطي كابول وحيرات عبر الصحارى وعلى ذرى الجبال المرتفعة».

كان هانس فون سيكت متوطنا بعمق في عالم العصر القديم الفكري، ويظهر المدى الذي بلغه هذا التوطن من مقارنة محاضرة عام 1929 مع رسالة كتبها مطلع عام 1918، يبين فيها النماذج الاستراتيجية التي اقتدى بها وأهدافه في المرحلة الأخيرة من الحرب[8]. وقد حاول عام 1929 التعبير بكلمات مشابهة عن «التشبع بما هو إلهي» لدى المقدوني العظيم: «إنه لمن خيال وموهبة أصحاب الرؤى أن ينظر القائد الملكي إلى أرض المستقبل متجاوزا المكان والزمان، وما وراء أمواج البحر المتوسط الزرقاء والجبال المغطاة بالثلوج، فيرى أمامه ميادين معاركه وانتصاراته، وأعدائه ومدنهم وكنوزهم، بيد أنه يواصل سيره، واثقا بآلته، سواء أخفق أم ضحك». كان سيكت يترك لدى محدثه انطباعا بأنه متحفظ، بارد وحيسوب، مع أن شوقه إلى رحلة إسكندر جديدة كانت متوطنة في ما وراء عقله.

زار سيكت الهند بصحبة زوجته في الفترة الواقعة بين تشرين الثاني 1907 وأيار 1908. وقادته خطى الاسكندر إلى منطقة شمال غرب البلاد البدائية، وقربته في 7 كانون الثاني 1908 من هدفه. كتب سيكت في يومياته: «... ثم قمت برحلة على درجة عظيمة من الأهمية نحو الجبال عبر الهندوس، حدود الهند القديمة التي عبرها الاسكندر الأكبر وفاتحون كثيرون بعده»[9]. أخيرا، وقف الجنرال قرب ممر خيبر، الذي يشكل حدودا مع أفغانستان ويعتبر بوابة الهند، التي مر بها القائدان الظافران الاسكندر وبابور، مؤسس السلالة المغولية الحاكمة. اجتذبت هذه الحدود الغريبة للإمبراطورية البريطانية سيكت إلى مداراتها: «كانت حركة القوافل مدهشة، عندما أتحدث عن 500 جمل، فإنني لا أبالغ». ثم لاحظ بدقة: «كانت شحنة هائلة من

8. هانس فون سيكت: القيادة على غرار العصر القديم. محاضرة ألقيت في الاجتماع الثاني والعشرين لأصدقاء ثانويات العلوم الإنسانية في برلين وإقليم براندنبورج، في 29 تشرين الثاني عام 1929، برلين 1929، ص 5.

9. هانس سيكت: من حياتي 1866 ـ 1917. لايبزيج 1938، ص 49.

البنادق في طريقها إلى أمير أفغانستان، وكانت أوصاف البنادق مكتوبة على كل صندوق». شد الوسط الغريب عيني سيكت عن البنادق: «ثم مرت قوافل من النساء، المتسربلات بأردية زرقاء طويلة. لم يسبق لأحد أن رأى من قبل مثل هذا العدد من النساء، وقد تدلت جدائل بعضهن من شعرها المزين». لاحظ سيكت أن الحكم البريطاني ارتبط عند هذه الحدود المهددة بقلة من الأشخاص هم ضباط المستعمرات البريطانية، المدربون على المبادرة وذوي الخبرة السياسية: «يرتبط كل شيء هنا بالعميل السياسي وقائد وحدات هذه الحدود، العقيد روس ـ كيبيل، الذي تعرفت عليه أيضا، وهو واحد من المخلوقات التي تدين بريطانيا بسيطرتها العالمية لها. يحب السكان الأصليون العقيد، الذي يتحدث لهجات الحدود جميعها، بينما يحكم ضباط آخرون المنطقة بكاملها . . .».

أدرك سيكت خلال الحرب العالمية الإمكانات المدهشة للقوة الألمانية. ولخص عام 1915 الصورة الجيوسياسية التي يتبناها على النحو التالي: «يستطيع المرء، في رأيي، ترك كثير من علامات الحدود حيث هي، مثلما حدث عام 1866، لكنه يستطيع تأسيس رايش جديد على الرغم من ذلك». هذا ما كتبه في رسالة بعث بها إلى مدير الأراضي فون فينترفيلدت ـ منكن، الرجل المحترم وصاحب النفوذ الكبير في أوساط نبلاء بروسيا[10]. لم يكن رايش سيكت الجديد يعني احتلال أراضي. إن ألمانيا المنتصرة يجب أن تنشر نفوذها بعد الحرب إلى ما وراء حدود الرايش، لكن هذا يجب أن يحدث بطريقة تخلو من استخدام القوة المباشر، وأن يقوم على اتفاقات تجارية ووحدة جمركية مع الحلفاء والمهزومين، كي تتشكل منطقة أوروبية كبرى حول برلين، مركزها السياسي.

كانت تصورات سيكت الجيوسياسية تتخطى المجال الأوروبي الضيق،

10. هانس ماير ـ فيكلر: سيكت، فرانكفورت 1967.

وتضم الشرق الأدنى، لأن «رايشا جديدا» يمتد إلى ما وراء البوسفور شرط ضروري لكسب الصراع القادم حول النظام العالمي النهائي الجديد. وقال عام 1915 إنه حتى إذا تحقق انتصار ألماني، فإن العالم الناطق بالإنجليزية سيبقى، بفضل قدراته الاقتصادية، قادرا على إقامة هيمنة عالمية دائمة في ظل القيادة المقبلة للولايات المتحدة الأميركية. لذلك كان على «رايش سيكت الجديد» أن يقيم مع نهاية الحرب العالمية الشروط السياسية والعسكرية القادرة على خوض صراع نهائي ناجح ضد القوى البحرية الأنجلوساكسونية. إن إنجلترا ستحتمي بوضعها كجزيرة، وستظل أميركا بمنأى عن أي هجوم، إلى أن توجد أسلحة بعيدة المدى قادرة على قهر المحيط، فلا بد من تهديد الأنجلوساكسون في مناطقهم وراء البحار، ومد المنطقة الأوروبية الكبرى إلى تقودها ألمانيا إلى تلك المناطق: «يجب أن يكون طريق آسيا حرا. وتنصب رغباتي على إقامة منطقة سيطرة خاصة بنا تقع بين المحيط الأطلسي وفارس، على أن لا يقوم، من فضلكم، «رايش ألماني» ضمن هذه الحدود، بل اتحاد دول يربطها اهتمام مشترك بازدهارها المتبادل، وتشعر بالسعادة داخل هذا الاتحاد».

من أجل تحقيق أهدافه الكبرى، علق فون سيكت منذ عام 1915 آماله على تفاهم مع روسيا. يجب أن نصون الرايش القيصري بعد الانتصار الألماني، وأن نعزز تطلعاته التوسعية نحو الجنوب والشرق. وأن تتجه روسيا بمواردها الموارد الطبيعية التي لا تنضب وسكانها الذين يتزايدون بسرعة جيوسياسيا نحو آسيا: «سيستلقي العملاق المترنح على جنبه الآخر بالتدريج، وستشعر إنجلترا بوطأة ثقله في آسيا الوسطى والشرقية». لذلك، لا يفاجئنا أن فون سيكت عارض تفتيت رايش القياصرة، لأن روسيا المحطمة لن تجد لها مكانا في استراتيجيته، التي رأت أن الثورة، والحرب الأهلية، وفصل أقاليم حدودية مهمة، وتلاشي السلطة الروسية لن تخدم بالدرجة الأولى غير المصالح البريطانية والأميركية .

بتصورات فون سيكت الجيوستراتيجية، وميله إلى القضية الآسيوية، ليس من قبيل المصادفة أن دربه كآخر رئيس أركان عثماني ودرب القائد العسكري للحملة الألمانية في أفغانستان قد تقاطعا. وكان الرجلان قد التقيا على أبعد تقدير في مطلع نيسان من عام 1918 في اسطنبول، بعد أن عاد نيدرماير إلى البوسفور ضمن هيئة أركان فالكنهاين. وهناك احتمال لأن يكون الرجلان قد التقيا نهاية كانون الأول / مطلع كانون الثاني في فلسطين، عندما زار سيكت المقر الألماني الرئيس في الناصرة، عقب سقوط القدس. مهما يكن من أمر، فقد أيد سيكت في نيسان من عام 1918 رحلة نيدرماير إلى آسيا. بينما كانت ملاحظات الأخير حول ضرورة قيام ألمانيا بأعمال ضد إنجلترا في القوقاز وفارس الشمالية تتفق وتأملات سيكت الاستراتيجية.

توجد اليوم أيضا في تركة هانس فون سيكت خرائط أرضية لفارس وأفغانستان. وقد استأثر مجرى بعثة ألمانيا الشرقية، كما استأثرت نتائجها، باهتمامه حتى إبان رحلاته الغامضة عبر البحر الأسود في الرابع من تشرين الثاني عام 1918. لكنه أدان بحدة «البعثات الرومانسية الفاشلة»، التي لم تترتب عليها نتائج بالنسبة إلى فارس وأفغانستان وقناة السويس. ورأى أنه إذا كانت فكرة ماكس فون أوبنهايم الرئيسة صحيحة استراتيجيا، فإن ترجمتها العملياتية لم تتفق بأي حال مع أهميتها، ومع أنها التهمت الكثير من المال، ـ يستحيل تحقيق أي شيء في الشرق دون مال ـ فإن إخفاقها أضر بسمعة ومكانة ألمانيا، التي افتقرت قبل كل شيء إلى كوادر مناسبين. ثم قال بشيء من القرف: «برز إلى جانب مدعين مجدين لكنهم قصيرو النظر، رهط من كائنات ليس جزء منها غير مجموعات مغامرين ما لبثوا أن ملؤوا ببساطة الدروب إلى هناك». رغم هذا، كان هناك استثناءات بين المشاركين في حملات الشرق، جعلت سيكت يخص بالعرفان «الأشخاص الأذكياء والمستعدين للتضحية» الذين شاركوا فيها، وكان نيدرماير أحدهم.

وصل وزير حرب الرايش أوتو جيسلر في آذار عام 1920 إلى مقر

الوزارة في شارع بندلر. لم يشعر السياسي الحزبي، البرجوازي الصغير الليبرالي القادم من جنوب ألمانيا، بالراحة أو الثقة وسط العسكريين البروسيين، الذين كان معظمهم من النبلاء: «كنت وحيداً، عندما دخلت يوم 28 آذار عام 1920 إلى المقر في شارع بندلر»[11]. وأكد رئيس بلدية نورنبرج السابق بامتنان أنه كان بين أركانه ضباط من جنوب ألمانيا: «بقدر ما كانت الأوضاع تسمح، خلق هؤلاء بعد حين مناخا أتاح لي تصريف الأعمال الجارية». ويذكر الوزير باهتمام خاص مرافقه، الذي لم يكن أحدا آخر غير المقدم نيدرماير، الشهير بفضل رحلته الأفغانية. حرص سيكت على إلحاق ضباط ملائمين بالوزير، ليقدموا له العون المناسب، بينهم نيدرماير، رجل ثقته، الذي نشط من الآن فصاعدا في المركز السياسي / العسكري المقبل لجمهورية فايمار.

لاجئون وثوريون

نجح سيكت في تحويل بقايا الجيش القديم والضباط المحطمين روحيا ومعنويا إلى جيش الرايش، المحترف والمتماسك والمنضبط، الذي لم يكن له مثيل في أي بلد آخر، على الرغم من قيود معاهدة فرساي. بذلك، توفرت له نواة جيش قابل للنمو وأداة مناسبة لاستراتيجية جيوسياسية تفكر في أبعاد مكانية كبيرة. تمسك سيكت بأفكاره الرئيسة بعد الهزيمة الألمانية ورفض تغيير مسلماته: بالتوافق مع تقليد بروسي، كان يعتقد بضرورة التوصل إلى اتفاق مع روسيا السوفييتية حول تقسيم بولونيا للمرة الرابعة، على أن يتحقق بالتوازي مع ذلك تعاون جيوستراتيجي مع موسكو ذو بعد سياسي عالمي، تنجزه ألمانيا أو تنضم إليه. كتب سيكت يوم 4 شباط 1920: «لا أمل لألمانيا في استعادة مكانتها العالمية إذا لم تنضم بقوة وثبات

11. أوتو جيسلر: سياسة حرب الرايش، ص 134. وكان لجيسلر علاقة شخصية حميمة مع نيدرماير. وقد اهتم بعد الحرب العالمية الثانية بأرملته.

إلى روسيا عظمى». وبعد أيام، في العشرين من شباط، شرح الجنرال المتحفظ والحذر عادة أفكاره بوضوح في محاضرة ألقاها في هامبورج: «لو أراد الشيطان أخذ بولونيا، لكان علينا مساعدته. إن مستقبلنا في القوقاز وروسيا العظمى، سواء أعجبنا ذلك اليوم أولم يعجبنا». إن «الانضمام» إلى روسيا كان يأخذ مجراه في تلك اللحظة بطريق غريبة.

اعتقلت يوم 15 كانون الثاني من عام 1919 مجموعة من ضباط الكتائب الحرة قائدي انتفاضة سبارتاكوس روزا لوكسمبرج وكارل ليبكنيشت وقتلتهما في برلين. بعد شهر من ذلك، في الثاني عشر من شباط 1919، وقع كارل راديك، مبعوث قيادة الكرملين إلى ألمانيا، في أيدي أعداء الثورة، الذين أبقوا على حياة الرجل واسع الاتصالات مع موسكو، لأن هذا الثوري المحترف يمكن أن يكون مفيدا بالنسبة إلى السياسة الألمانية. وبالفعل، فقد حظي بمعاملة متفهمة في سجن موآبيت، باعتباره شريكا لا بد من أخذه بجدية في أي حوار.

ولد كارل سكوبلسون سنة 1885 في لامبيرغ الغاليسية، بصفته يهوديا بولونيا يحمل الجنسية النمساوية. كانت البولونية لغة كارل الأم، لكن الرجل الذي غير لقبه في فترة لاحقة إلى سكوبلسون، كان يشعر بارتباط حميم مع الدائرة اللغوية / الثقافية الألمانية. لعب ابن موظف البريد الصغير بعد دراسة الحقوق في كراكاو دورا قياديا داخل الحركة الديموقراطية الاجتماعية الليتونية والبولونية، التي حملت بصمات مثقفيها اليهود. وكان إلى جانب ليو بونشتاين، الذي أضاف فيما بعد لقب تروتسكي إلى اسمه، أحد أكثر الصحافيين الاشتراكيين شهرة. وقد شارك لينين إعجابه بالأركان العامة البروسية، وبنظرية الحرب الألمانية وكارل فون كلاوزيفيتز، وظهر لأول مرة في ألمانيا عام 1908 في لايبزيج، حيث عمل كواحد من أهم دعائيي الجناح اليساري في الديموقراطية الاجتماعية الألمانية، التي تحلقت حول روزا لوكسمبرج، المهاجرة بدورها من بولونيا.

ذهب راديك عام 1917 إلى بطرسبرج، في أعقاب استيلاء البلاشفة على السلطة. وكان مستعدا، مثل ألكسندر هيلبهاند ـ بارفوس، وروزا لوكسمبرج، وليو تروتسكي، وكورت أيسنر، وأويجن لوفينيه أو بيلا كون، للقيام بعمله السياسي في أية مدينة وأي بلد، لأنه كان كوني الفكر وعمل من أجل الثورة العالمية. تولى راديك قيادة الشعبة الصحافية في مفوضية تروتسكي للشؤون الخارجية، وصار لاحقا مدير شعبة وسط أوروبا ومسؤولا بصفته هذه عن الثورة في ألمانيا. وقد قدم فالتر راتيناو، ممثل اليهودية البروسية المترف، في شباط من عام 1922 للسفير البريطاني في برلين، نائب الكونت دالبرنون، كارل راديك بالكلمات السيئة التالية: «إنه دون شك ذكي ومرح، لكنه فتى داهية ونموذج صرف لشاب يهودي أفاق». أراد راتيناو تهدئة البريطاني الشكاك بكلماته، وأفهمه أن الحكومة الألمانية لن تحقق شيئا بمثل هؤلاء الناس. لكن الحقيقة كانت تختلف كل الاختلاف عن ذلك.

كان فون سيكت شريك راديك الألماني الواسع النفوذ، لأن الأيديولوجيا العرقية الساذجة كانت بعيدة كل البعد عن فكره، الذي حذر عام 1931 بلغة كلاسيكية صقلها جوته من ضلالات الألمنة الشعبوية، عندما كتب في «صورة عن حياة مولتكه»: «من الصعب التأكد من العناصر التي تكوَّن منها في نهاية الأمر عرق من الأعراق، بل إن هذا الأمر عديم الأهمية في الواقع، لأن الموضوع لا يتعلق بالعناصر ذاتها بل بنتيجتها، ولا قيمة هنا إلا لما تقدمه النتائج من شروط ملائمة لتطور معين للفرد. لم يكن اختلاط الأعراق جليا، ولم يكن مثمرا في أية ولاية ألمانية مثلما كان جليا ومثمرا في بروسيا[12]. لم يكن تحفظ الجنرال تجاه راديك وحذره منه نتيجة نزعة لا سامية إذن، بل نتاج رغبة صارمة في السرية وشك صحي في الممارسات الثورية.

12. هانس فون سيكت: مولتكه، صورة أولى، برلين 1931، ص 26.

كان على رئيس قيادة الجيش إبقاء خطر تورطه محدودا قدر الإمكان، لأن خيطه السري نحو موسكو كان يمكن أن ينكشف دوما. وبالفعل، شكا فيكتور كوب، ممثل روسيا في برلين خلال شهر كانون الأول من عام 1920، إلى وزير الخارجية تشيتشيرين من أن صلات سيكت مع البلاشفة صارت معروفة في الدوائر القيادية الألمانية، وأنها أحدثت بلبلة عظيمة لدى ممثلي الحكومة. واعتقد كوب أن المصدر الذي باح بالسر موجود في موسكو، لكنه ظن أن من الممكن أيضا أن يكون قد تم فك الرموز السرية لبرقياته، لذلك يجب من الآن فصاعدا استخدام اسم رمزي لسيكت هو «سيبرت»، ولرجل ثقته نيدرماير اسم «نويمان»، على أن يكتب بالروسية «نايمان»[13]. كانت السرية هي كل شيء، لأن المصالح الامبراطورية والوجود السياسي، وحتى حياة الأشخاص المشاركين، كانت ترتبط جميعها بالتقيد الدقيق بقواعد العمل السري، التي يجب أن يلتزم بها ليس فقط ألمان الأركان العامة والثوريون البلاشفة، وإنما كذلك مجموعة ثالثة شاركت في اللعبة الخفية بين برلين وموسكو وكابول هي المهاجرون الأتراك.

كان بين زوار راديك في زنزانة سجن مؤآبيت شخصان عرفاه منذ وقت طويل هما: أنور باشا وطلعت باشا. كان قائدا الأتراك الفتيان هذان قد فرا في تشرين الثاني عام 1918 إلى أوديسا ونيكولاييف، ووصلا في النهاية إلى ألمانيا، حيث طلبا اللجوء ووجداه في برلين. وكان راديك يعرف طلعت باشا من بريست / ليتوفسك، عندما جلس التركي على طاولة المنتصرين. أما الآن فكان الباشا الفخور مهزوما ولاجئا لا وطن له. وقد ذكر راديك إنه ولد هو أيضا لموظف بريد صغير، وعرض كثوري تعاون اللاجئين الأتراك الفتيان، من أجل تحرير جماهير الشعب المحمدي في الشرق من عبودية القوى الغربية بمساعدة البلاشفة. وبرر النضال ضد العدو المشترك في نظر

13. الكسناندر نيكريش: العلاقات الألمانية / السوفييتية 1922 ـ 1941. نيويرك 1997، ص 6.

طلعت باشا عمليات الإبادة التي تعرض لها قبل قليل الأرمن. ألم تستخدم القوى الدولية وحكومة القيصر الأرمن خلال الحرب العالمية كخنجر في ظهر الجبهة التركية؟. ألم تكن الحكومة التركية مجبرة على اللجوء إلى أقسى التدابير؟. أظهر كارل راديك تفهما لحجج الباشا، ودعا التركيان إلى زيارة موسكو، لكن طلعت باشا لم يستطع تلبية الدعوة، لأنه قتل يوم 15 آذار عام 1921 بيد أرمني أطلق عليه الرصاص في أحد شوارع برلين/ شارلوتنبورج.

خطط ثورية، رسائل ومذكرات

لم تكن دعوة راديك الموجهة إلى التركيين الفتيين لزيارة موسكو مجرد حساب تكتيكي لثوري معتقل، بل أدرج في سياق تصور استراتيجي عام يمكن التوفيق بينه وبين أهداف ومصالح وأدوات سيكت[14]. كان البلاشفة يريدون تدمير نظام الغرب الرأسمالي العالمي، ويراهنون كالألمان على تحريض الشرق الإسلامي ضد القوى الغربية المنتصرة. وقد كتب أوتو فون فيزندونك، مستشار السفارة، الذي يعرف على خير وجه استراتيجية التحريض الألمانية في الشرق، رسالة «سرية جدا» في الثامن من آب عام 1917 إلى مستشار الرايش يقول فيها إن «فكرة تحرير الهند تعززت كثيرا بتأثير الحرب العالمية ومساعدة اللجان القومية... ويستطيع القوميون دعم التطلعات الاستقلالية بعد بلوغ السلام أيضا».

كان الديبلوماسي الألماني يفكر آنذاك في حقبة ما بعد نهاية الحرب: «من المفيد دوما بالنسبة لنا أن تنشغل بريطانيا انشغالا مستمرا بالمشكلة الهندية، وأن تواجه هناك مصاعب متزايدة على الدوام، دون أن تكون لدينا رغبة في نشوب حرب ألمانية ـ إنجليزية جديدة. لذلك يجب أن نفكر إن كان ممكنا إضافة مليون مارك إلى مبلغ المليون مارك المخصصة شهريا لدعم هذا

14. أوتو ـ أيرنست شوديكوبف: سياسة بريطانيا البحرية، الأسس العسكرية الجغرافية والاستراتيجية 1880 / 1918. هامبورج 1938.

المشروع». إلى هذا، أراد المستشار فون فيزندونك تأسيس وقفية سرية في سويسرا لديها قدرات تمكنها من تمويل ثورة الهند بعد الحرب العالمية: «بما أن هذا المبلغ لا يجوز أن يمس، وبما أنه فوائده وحدها هي التي ستستخدم، فإن المليون يمكن أن توظف في قروض حربية، على أن تودع الأوراق قبل عقد السلام بفترة قصيرة باسم وسيط موثوق في مصرف محايد، ليمارس شيئا من الرقابة على طريقة استخدام الفوائد». لم ينفذ هذا الاقتراح بسبب تحفظات تتعلق بالموازنة لدى وزارة الخارجية، لكن قيادة جيش الرايش لم تتردد بعد الحرب في الانطلاق من استراتيجية التثوير هذه.

شهد عام 1919 أشياء غريبة. يصف فريتز تشونكه، مدير لجنة روسيا في الاقتصاد الألماني، ذات السمعة الحسنة والنفوذ القوي آنذاك، حدثا غريبا رواه عام 1940 لكاتب سيرة سيكت: فقد عمل عام 1919 كضابط ارتباط ألماني في كوناه الليتوانية، بينما كان البلاشفة يقفون على أبواب المدينة. وكان عليه دعم جيش ليتوانيا في معركته الدفاعية، لا سيما وأنه كان لا يزال في طور البناء. فجأة ظهر في مكتبه مدنيان تصحبهما حراسة مسلحة، عرف تشونكه، الذي خدم خلال الحرب العالمية تحت إمرة سيكت في تركيا، واحدا منهما هو أنور باشا، وزير حرب الإمبراطورية العثمانية وصهر السلطان، الذي كان في طريقه من برلين إلى موسكو عندما اضطرت طائرته إلى الهبوط اضطراريا قرب كوناه[15].

عثر في الطائرة التي كانت تحضر أنور باشا إلى روسيا على خرائط ووثائق خاصة بالأركان العامة الألمانية. لكن تشونكه نجح في إخراج المواد المحرجة من الطائرة ليلا، بمساعدة طيار ألماني يعمل في خدمة الليتوانيين. وبعد أيام تم تحرير أنور باشا بطريقة مليئة بالمخاطرة من السجن، وأعيد

15. مذكرة الرائد المتقاعد فريتز شونكه: تحرير أنور باشا من الأسر الليتواني في نيسان عام 1919.

سالما إلى الأراضي الألمانية. هكذا فشلت المحاولة الأولى لنقل أنور باشا من برلين إلى موسكو. يزعم تشونكه في رسالة بعث بها إلى كاتب سيرة الجنرال فريدريش فون رابيناو أن سيكت شكره بكلمات إطراء كثيرة على ما قام به.

في مطلع صيف 1920، تلقى معلم الفرسان إيرنست كوسترينج، الذي ولد وترعرع في روسيا وعمل تحت إمرة سيكت في الشرق، أمرا باصطحاب أنور باشا من بروسيا الشرقية إلى الجيش الأحمر، الذي كان يقترب من الحدود الألمانية خلال الحرب الروسية البولونية. وفي نهاية تموز، حين لامس الجناح الأيمن لمجموعة جيش توخاتشيفسكي، المتقدمة نحو وارسو، حدود بروسيا الشرقية، وصل الرجلان بعد رحلة قصيرة بالقطار قاما بها من برلين إلى شتيتين، إلى كونيجزبيرج عبر بحر الشرق، حيث اضطر كوسترينج إلى كبح جماح أنور مرات عديدة، لأن التركي حاول حث رفاقه الباقين في برلين على اللحاق به، عبر برقيات مفتوحة أرسلها إليهم، وأظهر من جديد انعداما خطيرا في الحذر، قبل بلوغ الحدود بقليل: فقد كتب في الموقع البروسي الشرقي الصغير يوهانيسبيرج رسالة بعث بها إلى زوجته في برلين، ابنة آخر السلاطين، وضعها في غلاف كبير يحمل التاج القيصري التركي، وأراد إرسالها في بريد الرايش المسجل. اضطر كوسترينج إلى التدخل، قبل أن يسرب التركي ليلا عبر الحدود الخضراء، ويسلمه إلى القوات السوفييتية العارفة بقدومه.

كتب أنور باشا يوم 25 آب من عام 1920 رسالته الأولى إلى سيكت[16]. لم تكن معرفة التركي باللغة الألمانية سيئة، فكان يستطيع كتابة أفكار سياسية حساسة دون الاستعانة بمترجم. وكان قد ناقش، عندما كان في برلين، تفاصيل رحلته إلى موسكو مع صديقه القديم، الذي شرح له

16. توجد رسائل انور باشا في تركة سيكت: الأرشيف البافاري، رقم 247/ 195.

الأفكار الاستراتيجية المختلفة داخل القيادة السوفييتية، كما أخبره بها قبل ساعات قليلة ضابط أركان عامة روسي. تقول الرسالة إنه يوجد جماعتان في المجموعة البلشفية القيادية، تريد الأولى مكافحة «إمبريالية الائتلاف» بالتعاون مع حكومات شيوعية في أوروبا، بينما تريد الثانية توجيه ضرباتها إلى الإمبراطورية البريطانية في الهند، بما يتفق مع تصورات سيكت الجيوستراتيجية.

عزم أنور باشا على إبداء اهتمام خاص بالقضية الأفغانية ورجا سيكت تزويده بأدبيات عنها، وخاصة الكتاب الذي كان الألماني قد أطلعه عليه مباشرة قبل رحيله من برلين. لم يذكر أنور عنوان الكتاب، لكنه قصد أغلب الظن دراسة صدرت عام 1883 بقلم اللورد روبرتس عنوانها: «هل غزو الهند ممكن؟». إلى هذا، رجا الباشا تزويده بخطط قابلة للتنفيذ الميداني على الحدود الهندية / الأفغانية، وكانت موجودة في برلين. أخيرا، أراد أن يمده الألمان بآلات وتجهيزات لإنتاج الذخيرة.

لم يعلق أنور باشا آماله في آب عام 1920 على أفغانستان دون سبب، فبعد أن اغتيل الأمير حبيب الله في 20 شباط 1920، حكم أمان الله، الابن الثالث للأمير المقتول، كابول. وفي مطلع أيار عام 1919 بدأت وحدات أفغانية العمليات الحربية، التي دامت أسابيع قليلة فقط، لأن البريطانيين المنهكين عسكريا، والأفغان المزودون بأسلحة بدائية تقنيا أوقفوا القتال. كانت الحرب البريطانية / الأفغانية الثالثة فاصلا قصيرا وحسب، بدا أنه انتهى بسرعة مع توقيع هدنة يوم 8 آب 1919 في بيشاور، لكن التوترات في منطقة الحدود بقيت محتدمة، إلى أن أنهتها معاهدة سلام نهائية عقدت عام 1921.

في هذا الوضع الغامض، كان من المفهوم أن يشغل أنور باشا نفسه عام 1920 بالوضع حول أفغانستان، خاصة وأن محادثاته الأولى شحنته

بالتفاؤل. صحيح أن العمليات ضد دول الائتلاف كان يجب أن تقتصر في شتاء 1920 / 1921 على عمليات دفاعية، إلا أنه كان يمكن مطلع عام 1921 التفكير بتنفيذ عمليات هجومية ضد القوى الغربية على الحدود التركية والفارسية والأفغانية. وقد رجا وزير الحرب التركي السابق في رسالة تشوبها بعض الأخطاء اللغوية بعث بها إلى رئيس أركانه السابق موافاته ببعض التوصيات حول ما يجب عمله: «بعد اتخاذ الاستعدادات الضرورية في الفترة الماضية، يستطيع المرء الانتقال في الربيع إلى الهجوم العام على جميع الجبهات، وهو أمر أريد معرفة وجهة نظركم حوله».

كان الوضع على جبهة السوفييت الغربية قد غدا أكثر صعوبة بكثير، بعد هزيمتهم قرب وارسو. إلا أن الجيش الأحمر كان يأمل في وقف الهجوم البولوني المضاد. وصلت رسالة أنور الثانية في 26 آب 1920، وفيها تلخيص لبعض محادثته مع نائب تروتسكي إيفراييم سكليانسكي: «يوجد هنا حزب يمتلك سلطة حقيقية ينتسب تروتسكي إليه، يريد التوصل إلى تفاهم مع ألمانيا لبلوغ نتيجة إيجابية». ونصح أنور أن تنخرط ألمانيا بنشاط في الصراع ضد بولونيا، لتخفيف الضغط عن روسيا السوفييتية. ووقع الرسالة أخيرا باسم مستعار: «تحياتي إلى زوجتكم المصون. خادمكم المطيع علي».

بعد ثلاث ساعات كان أنور يجلس في القطار المسافر إلى باكو مع جيورجي سينوفييف، رئيس اللجنة التنفيذية في الأممية الثالثة، الذي سيفتتح «أول مؤتمر لشعوب الشرق» بدعم من كارل راديك. عندما احتفى الحاضرون بعاصفة من الحماسة بأنور باشا، تنصل علنا من تعاونه السابق مع الرايش الألماني، لكن ذلك كان مجرد تمرين وحسب اقتضته لغة الخطابة. وحين دعت الأممية الشيوعية في إعلان حماسي شعوب الشرق الإسلامية إلى «الحرب المقدسة» ضد الامبرياليين الغربيين، كان الباشا يعلم أن هذه السياسة تتفق كل الاتفاق مع خط أصدقائه البرلينيين الاستراتيجي.

حيا هؤلاء مؤتمر باكو باعتباره نجاحا لهم. وفي 24 أيلول عام 1919 أسس ضباط سابقون كانوا قد قاتلوا في مجموعات ألمانيا الآسيوية ضد البريطانيين، «عصبة مقاتلي آسيا» في مطعم «فايهن شتيفان» على ضفة شونبرج في برلين، رغبة منهم في وضع معارفهم السياسية والعسكرية المتخصصة، وتجاربهم الوظيفية وقدرتهم على التأثير الاجتماعي في خدمة سياسة ألمانية شرقية نشطة. ثم ظهرت بدءا من 1 كانون الثاني عام 1919 «بلاغاتهم»، التي تابعت تطورات الشرق السياسية والعسكرية المهمة وعلقت عليها. وفي الأول من كانون الثاني لخصت «البلاغات» بفرح غامر نتائج مؤتمر باكو، فقالت: «لقد رأى لينين وتشيتيرين بنظرتهما الثاقبة نقطة ضعف إنجلترا الأكبر، ألا وهي الهند». وأكدت ردود الفعل العصبية التي صدرت عن دوائر الحكومة البريطانية، لمقاتلي آسيا «أن الأمل ينبعث من جديد بعد عامين من هزيمتهم. لقد رأوا ضوء الفجر يبزغ في الشرق واعتقدوا» أنه يجب النظر إلى مؤتمر باكو باعتباره الفصل الافتتاحي من معركة الحياة والموت.

كان أوسكار ريتر فون نيدرماير، كشقيقه فريتز، عضوا في «عصبة مقاتلي آسيا». ثمة في تركة فون سيكت مذكرة غير مؤرخة يحلل فيها نيدرماير بالتفصيل الوضع في أفغانستان وتركستان وفارس بعد مؤتمر باكو[17]. ويحيل إلى «الحرب المقدسة التي أعلنت هناك». تبدو المذكرة جوابا على رسائل أنور باشا، مع أنها تقوم إجمالا نتائج باكو بتحفظ وتشاؤم.

كان توجيه ضربة ضد البريطانيين في الهند والشرق الأدنى يتفق كل الاتفاق مع المصالح الجيوستراتيجية للرايش الألماني ـ كما عرفها فون سيكت ـ لكن محاولة استخدام قرابة أيديولوجية مزعومة كأداة لها، بدت غير واعدة في نظر نيدرماير، لأن الإسلام لم يكن في تقديره حضارة مندمجة

17. الأرشيف البافاري ـ الأرشيف العسكري. رقم 247/ 204.

تتسم بالميل إلى النزعة الجماعية، ولأنه من الضروري التمييز بعناية بين مختلف جماعات المؤمنين ومجموعات السكان. إن العامل الحاسم ليس هو الدين المشترك، بل الهوية السياسية المتباينة بتباين شعوب الشرق المختلفة: «فإذا أراد أحد فرض البلشفية أو حتى التحالف معها بالقوة على واحد من الشعوب المذكورة، فإنه سيعيش تجارب غير مرضيه إطلاقا».

نصح نيدرماير بعمل حذر يراعي تباينات الشعوب المختلفة. وقال بالامتناع قبل كل شيء عن دفع الأفغان إلى أحضان البريطانيين عبر سياسة بلشفية تفرض عليهم من الخارج. ودعا إلى استمرار أفغانستان في الوجود كدولة عازلة، وإلى تحويلها إلى نقطة انطلاق عمليات مقبلة بواسطة دائرة قليلة من الخبراء المختارين، وبأعظم قدر من الحرص، بما أن العمل ضد الهند يحتاج إلى وقت ويتطلب تحضيرا محكما، فإذا ما تقرر شن هجوم في مرحلة زمنية أقرب، «وجب وضع خطة هجوم مختلفة كل الاختلاف عن الخطة التي تم اتباعها في القتال الذي خاضة الأفغان إلى الآن ضد الهند». كان نيدرماير مقتنعا من قدرته على تقديم خطط ميدانية أفضل إلى أنور باشا والبلاشفة: «وقد حددت في حينه بدقة هذه الخطط، بالإضافة إلى مجمل عمليات الاستطلاع السياسي والعسكري والاقتصادي في أفغانستان، لكن قسمها الأكبر بقي للأسف مخبئا في أفغانستان ذاتها، وأنا على استعداد لوضعها تحت تصرف من يريد الاطلاع عليها».

إلى هذا، اقترح نيدرماير العمل في القوقاز وأرمينيا وأذربيجان وفارس الغربية وفق خطة موحدة، مثلما اقترح توحيد الانتفاضات العربية والكردية غير المنسقة مع المقاومة التركية بقيادة كمال باشا، ووضعها في خدمة المصالح الألمانية. هنا، تستطيع برلين أن تقدم عونا نزيها، وأن تتكفل بتقديم حماية سياسية لمجنبة البلاشفة في فارس: «وهنا أيضا يمكن لنفوذ ألماني محايد أن يمارس تأثيرا مهدئا على الخواطر». لا يجوز طبعا توريط حكومة الرايش المرتبطة بمعاهدة فيرساي، لذا يحسن أن يعمل في الشرق

«مغامرون» متفرقون، دون أن يكون مسموحا لهم الاشتراك العلني في الأعمال العدائية والاستفزازات.

لخص نيدرماير تأملاته الاستراتيجية في جملة واحدة، وافق سيكت عليها ووضع خطا تحتها: «ينصب الأمر اليوم على القيام بتسديد ضربة قوية إلى إنجلترا نفسها في منطقة من مناطق الشرق الإسلامي، يمكن القيام بها في بلاد ما بين النهرين أو فارس»، مع أنه ليس بوسع أحد غير القيادة البلشفية في موسكو تنفيذ عملية كهذه. لكن البلاشفة وجدوا أنفسهم في وضع سياسي وعسكري عصيب، بعد هزيمتهم أمام وارسو، فنصحوا نيدرماير بالانتظار والترقب، فقال بدوره أنه: «لا يجوز اتخاذ قرار عصبي أو متسرع بخصوص عمل ما في البلدان المذكورة»، «حتى إذا كانت حكومة موسكو تجد نفسها في وضع يائس، فإن التخلي عن العمل هو هنا أفضل من اختيار الوسائل الخاطئة». رسم سيكت خطا سميكا بحبر أحمر تحت هذه الخلاصة.

أتيحت فرصة حديث شخصي بين سيكت وأنور باشا في نهاية عام 1920، عندما ظهر السياسي اللاجئ منتصف تشرين الأول في برلين من جديد، كي يوطد علاقاته مع السياسة والمجتمع الألمانيين. كان فريدريش ساره، عالم الآثار الألماني المهم ومدير المتحف الإسلامي في جزيرة المتحف، صديق أنور باشا، لأنه عمل خلال الحرب العالمية الأولى ضابط ارتباط ألماني في الشرق، وقدم مقترحات لأنور باشا حول إعادة تنظيم متاحف اسطنبول. كما كان يمكن الوصول بالترام خلال وقت قصير من وسط برلين إلى قصر ساره الرحب في حي نويبابلزبيرج الهادئ، حيث كان الباشا يجد مسكنا يلائم مقامه، هو بالنسبة إلى أصدقائه مكان سري وآمن، قابل الباشا فيه ضباطا وأساتذة وديبلوماسيين، بينهم فيكتور كوب، ممثل البلاشفة في برلين.

غادر التركي عاصمة الرايش الألماني منتصف كانون الثاني عام 1921، دون عودة هذه المرة. لقد رجع إلى موسكو عبر فيينا وبودابست. لا زال البناء الجميل الخاص بصديقه ساره قائما إلى اليوم في نويبابلزبيرج، فقد اشترته شركة استثمارات وجددته وأضافت إليه مبنى جديدا. ولا زال الجيران الأقدم يسمون الجسر الصغير، المفضي إلى جلينكه، «جسر أنور باشا»[18].

ألاعيب شرقية

نشرت الحكومة الفارسية عام 1919 «لائحة سوداء» بناء على ضغط بريطاني، ضمنتها أسماء ألمان وسويسريين وسويديين وأتراك حظرت دخولهم إيران طيلة عشرة أعوام. وقد ورد اسم نيدرماير في اللائحة بصفته قائد بعثة أفغانستان الألمانية، مثلما ورد اسم منافسه فيرنو أوتو فون هانتيج. مثلما كان عالم الآثار فريدريش ساره ممنوعا بدوره من دخول البلاد، ومثله ماكس فرايهر فون أوبنهايم والضابط السويدي دو ماريه. وقد كان لدى الإنجليز أسبابا جعلتهم يعزلون منطقة نفوذهم الشرقية من أجل حمايتها[19].

ألقى المقدم نيدرماير في شباط من عام 1921 محاضرة سرية في وزارة حرب الرايش في برلين عنوانها «تقويم الظروف العسكرية / الجغرافية الضرورية لشن هجوم على الهند». كتب جونتر فوجت، أحد أعضاء البعثة الألمانية إلى أفغانستان، عام 1958: «إذا كانت ذاكرتي لا تخونني، فإن الجنرال فون سيكت كان موجودا في المحاضرة». لم يكن رئيس قيادة الجيش مجرد مساند لنيدرماير، «بل أن الأخير كان كثير التردد على بيته»[20].

18. أشكر الدكتور يانيس كروجر من المتحف الإسلامي على إشارته إلى بناء ساره في نويبابلزبيرج.

19. تعتبر اللائحة السوداء الفارسية فهرسا يضم أسماء البحاثة والساسة الألمان المتخصصين بالشرق. راجع: مجلة العالم الإسلامي، باريس، حزيران 1923، ص 196 ـ 199.

20. راسل فوجت نهاية الخمسينات المؤرخ اولريش جيهركه، الذي كان يعمل آنذاك في كتابه

لم يكن شبه القارة الهندية ناضجا مطلع عام 1921 للثورة، حسب رأي نيدرماير. لذلك كان من الضروري القيام بعمل بطئ ومنهجي يستهدف السكان، لأن أي عمل عنيف أو متسرع سيكون ضارا. إلى هذا، كان من الأهمية بمكان نشر دعاية دائمة للوطنية الهندية، والعمل على تجاوز التناقضات الدينية، التي تقوم السيطرة البريطانية على استغلالها البارع: «لا شيء يظهر خوف بريطانيا من هذه الدعاية أفضل من تراخيها الظاهر تجاه الحكومة السوفييتية، وتبنيها مطلبا رئيسا ودائما هو قيام روسيا بوقف هذه الدعاية». قال نيدرماير إنه لا يستطيع تقديم تقويم دقيق لقيمة الجيش الهندي العسكرية، الذي يقوده البريطانيون. «ولكن، ما الذي يمنع من إضعافه هو أيضا بواسطة دعاية ذكية؟».

ودعا الرجل إلى ضرورة بناء أفغانستان كموقع ونقطة انطلاق للأنشطة المعادية لبريطانيا، لأن عملا دعائيا حازما يمكن أن ينطلق من أفغانستان ليقوض السيطرة البريطانية في الهند: «ثم يجب انتظار السانحة، التي ستأتي ويجب أن تأتي، حين يتخذ صراع إنجلترا من أجل مكانتها العالمية أشكالا أكثر حدة. عندئذ، ربما انتقم خطأ الإنجليز منهم، حين سيطروا بملايينهم الخمسين على أربعمائة مليون من شعوب الأرض وامتصوا دماءها». وختم محاضرته بنبوءة: «عندما ستستيقظ القارات، ستدمر إمبراطوريات الجزر العالمية».

ألحق المقدم خريطة بمحاضرته تبين الخطوات العملية المختلفة، التي تجعل من هجوم ضد مركز السيطرة البريطانية في الهند ناجحا. من الأهمية بمكان، هنا، وجود إمداد كاف بالمياه وبنى تحتية. عمل شقيق نيدرماير الأصغر ريتشارد مهندسا في أفغانستان بين عامي 1923 و 1926، وبنى

الضخم حول سياسة ألمانيا الفارسية، وعنوانه: فارس في سياسة ألمانيا الشرقية خلال الحرب العالمية الأولى، مجلدان. شتوتجارت، بلا تاريخ.

التجهيزات اللازمة لإمداد قندهار بالماء، قبل أن ينجز أطروحة دكتوراه حول مشكلات المياه في أفغانستان[21]. عاد كورت فاجنر، صفي نيدرمايير الديناميكي، إلى أفغانستان في منتصف العشرينات كمندوب للصناعة الألمانية، وأدخل جونتر فوجت، الذي كان مع نيدرماير وفاجنر في كابول بين تشرين الثاني عام 1915 وأيار عام 1916، إلى شبكة الأعمال السرية.

أرسل نيدرماير «تقويمه للظروف العسكرية الجغرافية الضرورية لشن هجوم على الهند»، ورجاه إبداء موقفه منه. أجاب فوجت يوم 20 أيار 1921 برسالة من ست صفحات، وأعلن أنه لم يكتبها «بدافع الطموح العسكري، الذي توقف لدي حتى لا أقول إنه مات»، بل أولا وأخيرا «بدافع المشاركة الحية، بدافع الرياضة». تركز اهتمام فوجت الحذر على البنية التحتية قبل كل شيء، ورأى أنه من أجل بناء أفغانستان كقاعدة عمليات ضد بريطانيا، من الضروري قبل كل شيء بذل جهود مكثفة في بناء الطرق. وعلى الرغم من أن شروح صديقه بدت له من الماضي «شيئا غير واقعي، كما يقولون اليوم، ترجع إلى حقده على إنجلترا»، فإنه أبدى يوم 20 أيار استعداده للتعاون من جديد. وهو عرض قدر لنيدرماير أن يرجع إليه في فترة لاحقة.

وصف نيدرماير يوم 12 آذار 1921 الوضع بالتفصيل في رسالة بعث بها إلى صديق آخر من كابول هو الملازم أول النمساوي إيميل ريبيكا[22]، ووقع في إهمال جسيم حين كتب المضمون الحساس على ورقة رسمية حملت عنوان وزارة الحرب الألمانية. زعم نيدرماير أنه مطلع بالتفصيل على التطورات في روسيا: «لدي أنباء مؤكدة بصورة مطلقة، وأنا أتابع الأحداث والوقائع بأعظم اهتمام، وقمت بكل ما يمكن القيام به اليوم من أجل قضيتنا». بعد الهزيمة أمام البولونيين، ساء وضع القيادة البلشفية كثيرا،

21. ريتشارد نيدرماير: نظام الري في أفغانستان، 1926. دانتزيج 1926.
22. تركة إيميل ريبيتشكا، في معهد أفغانستان السويسري. أطروحة دكتوراه.

ووقعت «انتفاضات في جميع أرجاء البلاد: انتفاضات فلاحين، جنود ومواطنين. ومع أن موسكو لا تزال في يد الحكومة، فإن نقاطا كثيرة مهمة لم تعد كذلك. ولعله أمر طيب أن الحركة ليست منظمة وممركزة إلا قليلا». توقع نيدرماير هممود الحرب الأهلية في المدى المتوسط، وتنبأ باستقرار النظام الثوري الذي سيكتسب طابعا ليبراليا: «هو بلشفية معتدلة أو بلشفية منشفية. المهم، أن هذا النظام لن ينزلق أكثر إلى اليمين».

كان ريبيكا يرغب منذ آذار عام 1921 في العودة إلى أفغانستان، لكن نيدرماير نصحه أن يتريث لبعض الوقت: «أرسلت قبل خمسة أيام أحد المقربين مني إلى إنجلترا، بغرض الاستطلاع وإقامة اتصالات. وأنا أتوقع عودته، إذا سار كل شيء على ما يرام، في أسبوعين أو ثلاثة». أما الأمر الرئيس الآن فهو إقامة تعاون راسخ الأسس مع روسيا في المستقبل. «هكذا ترى أنني أعمل كل شيء يمكنني عمله، لذلك أحذرك من الذهاب اليوم كمغامر إلى هناك، حيث لا يوجد أي أساس لأي عمل. وأعدك أن أرسي هذا الأساس من جديد، خاصة وأن روسيا لم تضع بعد أية أهداف».

تابع نيدرماير في أفغانستان، هذا ما ألمح إليه بعد ثلاثة أعوام في حولية «عصبة مقاتلي آسيا»، حيث نشر أفكارا عن «أفغانستان في إطار الجيوسياسة الآسيوية»، اعتبر البلد الآسيوي موقع فصل بين التوسع الروسي والثورة الهندية. وقال إن هذه الصلة حاسمة، لأنه يمكن في آسيا وحدها هز هيمنة الأنجلوساكسون العالمية: «تنتمي أفغانستان إلى القارة الآسيوية، التي تعتبر روسيا الحالية قوتها الأولى، وهي بلد مرور وبوابة إلى الهند، الخاضعة لقوى بحرية معادية للقوى البرية والقارية. إذا ما وعت هذه القارة ذات يوم قوتها وحقها في الحياة والتملك، وإذا ما أتت الدفعة الأولى من الشعب الروسي، الذي يسترد قوته من جديد وتحيط به اليوم بحار دافئة، فإن غسق السيطرة البريطانية سيبدأ في آسيا، وسيكون بوسع بلد كأفغانستان ممارسة دور حاسم».

صلات غريبة

صمم نيدرماير في شباط عام 1921 مسيرة إسكندرية جديدة وخيالية، لكن أفكارها كانت على صلة مع الواقع، كما كانت تأملاته النقدية للأشياء دقيقة، وتحذيراته من التوقعات المبالغ فيها مدوية، ونصائحه العملياتية قابلة للتنفيذ. استند مخطط نيدرماير على معرفة شخصية بالمنطقة، وعلى دراسات علمية مكثفة ومعرفة بوجود نقاط انطلاق تتيح تقويض الإمبراطورية البريطانية العالمية في المدى البعيد. كانت الطرق الخفية إلى الهند تمر بموسكو وكابول، وهذه الممرات السرية لم تكن مغلقة مطلع عام 1921.

أسس سيكت المجموعة الخاصة «ر» من ضباط كان على اقتناع بولائهم وصدق مواقفهم[23]، أسند إليهم مسؤولية الصلات السرية بين جيش الرايش وروسيا، في الوقت نفسه الذي رحل فيه أنور باشا إلى موسكو. كان أعضاء المجموعة قد خدموا تحت إمرة سيكت في تركيا، وكانت لديهم خبرة في الشؤون الروسية و / أو خبرة في الشؤون الشرقية. أما قائد المجموعة فكان العقيد أوتو هاسه، رئيس شعبة مكتب الوحدات في الجيش، الذي عمل تحت إمرته الرائد فيلهلم شوبيرت والمقدمان أوسكار نيدرماير وهيربرت فيشر. وانتمى كذلك إلى المجموعة الخاصة المقدم فريتز تشونكه، الضابط الذي حرر عام 1919 أنور باشا في قونيه، وصار في الثلاثينات مدير أعمال «لجنة الاقتصاد الألماني الشرقية» الواسعة النفوذ.

توثقت عرى العلاقات بين برلين وموسكو وكابول بفضل معونة أنور باشا، الذي أعلن يوم 26 شباط 1921 من موسكو عن رغبة الجنرال الأفغاني محمد ولي خان زيارة أوروبا، وطلب من سيكت الاهتمام بالضيف. بينما أبلغ مفوض حكومة الرايش الكلي الصلاحية في موسكو وزارة الخارجية يوم

23. مانفريد تسيدلر: جيش الرايش والجيش الأحمر 1920 ـ 1933. دروب ومحطات تعاون غير مألوف. ميونيخ 1993.

27 أيلول 1920 أن بعثة أفغانية خاصة تعتزم تجنيد مختصين ألمان في صناعة النسيج ومعامل السلاح، عندما ستزور برلين.

وصلت البعثة الأفغانية يوم 8 نيسان 1921 إلى برلين، واستقبلها يوم 12 نيسان وزير الخارجية فالتر سيمون والتقى بها في اليوم التالي رئيس الرايش فريدريش إيبرت من قبيل المجاملة. لكن أنور باشا أرسل يوم 19 نيسان رسالة توصية جديدة تعلم فون سيكت بوصول ضيف جديد من كابول: «أبعث إليكم هذه الأسطر، لأقدم لكم صديقي بدري بك، الذي كان خلال فترة طويلة مع جمال باشا في كابول، وسيثير بالتأكيد اهتمامكم إن استمعتم إلى شرحه للوضع هناك وفي روسيا».

كان جمال باشا، وزير بحرية الإمبراطورية العثمانية السابق، والقائد العسكري الأعلى في سوريا، والعضو الثالث في قيادة الأتراك الفتيان، قد وجد ملجأ له في كابول بعد خسارة الحرب العالمية. وكان بين مرافقيه رئيس شرطة اسطنبول بدري بك. استأنف الأتراك الفتيان نشاط نيدرماير التدريبي، فبدؤوا يعيدون تنظيم الجيش الأفغاني، واستقدموا مزيدا من المدربين، وحاولوا تحديث صناعة السلاح المتواضعة، وكلفوا بدري بك بشراء آلات معامل في ألمانيا والدول الأوروبية الأخرى، فقدم لمحادثيه الألمان في أيار من عام 1921 وصفا للوضع اتسم عموما بالتفاؤل، يرى أن موقف كابول شهد تحسنا جوهريا حيال البريطانيين، وأن المزاج الثوري واصل تطوره في الهند بأكثر مما اعتقد المرء في أوروبا، في حين أقام عدد كبير من الثوريين الهنود في أفغانستان، حيث نعموا بمساعدة الأمير، وقال إن بناء صناعة سلاح قوية سيساعد في تحضير البلاد لحروب مقبلة.

المح بدري بك إلى أن الأفغان والأتراك غدوا أكثر ريبة تجاه قيادة موسكو. وقال إن طرد أمير بخارى وفرض سفيتة لا ترحم على آسيا الوسطى منذ نهاية 1920، وسلوك البلاشفة القاسي ضد جمهوريات القوقاز،

أقلقت الأفغان، وإنه تكمن نوايا روسية خطيرة وراء الأممية التي أعلنت من باكو، ولم يكن إعلان دعم أخوي واسع لشعوب الشرق المسلمة غير قناع شفاف حجبت قيادة موسكو به إرادتها الإمبريالية. وأخبر بدري بك محادثيه الألمان أيضا عن عزم حكومتي كابول وأنقرة منع أية دعاية بلشفية في مجال سيادتهما.

عاد نيدرماير في هذا الوضع العصيب إلى عرض جونتر فوجت التعاون في أفغانستان. وكان قد رجاه في برقية أرسلها إليه آخر صيف عام 1921 قطع إجازته الصيفية في جلاتس السيليزية والقدوم إلى برلين[24]، حيث سأل مرؤوسه السابق إن كان على استعداد للذهاب إلى كابول عبر موسكو، بتكليف من وزارة جيش الرايش، لدفع حكومة أفغانستان إلى إقامة أوثق صلات ممكنة مع روسيا، وإلى الإسراع في بناء الطريق الذي يجتاز الهندكوش، وتقوية الاتصالات الأرضية بين كابول وقندهار: «لم يجر أي حديث عن ذلك، إلا أنه كان واضحا أن تدابير كهذه تخدم التحضير لهجوم روسي على الهند».

سافر فوجت من برلين إلى موسكو، بدعم وتمويل مفوضية السوفييت التجارية. بعد عقود، لخص فوجت ذكرياته عن الرحلة في تقرير طويل كتب بطريقة مشوقة، يقول إنه قابل في موسكو مغامرين وثوريين ومعارف قدماء، والتقى مبعوث روسيا إلى كابول في أحد فنادق موسكو، ولمح فجأة في أحد الممرات كومر ماهندرا برتاب وبركات الله، الثوريان الهنديان، اللذان سبق له أن أحضرهما بصحبة البعثة الألمانية إلى كابول: «بالنظر إلى أن مهمتي سرية، اعتقدت أن خير ما أفعله هو التظاهر بأنني لم أعرفهما. وقد كانا على قدر من اللباقة جعلهما يحترمان سلوكي».

24. تركة جونتر فوجت في معهد أفغانستان السويسري، بودندورف / سويسرا.

انفرد فوجت في موسكو بمفوض الخارجية تشيتشرين، وأجرى معه محادثة دامت ساعة كاملة باللغة الألمانية. وأجرى كذلك مقابلة ودية مع جمال باشا، السياسي التركي السابق ووزير حرب أفغانستان، تحدثا خلالها بالفرنسية، لكن جمال باشا لم يكن بمفرده في موسكو: «فقد كان هناك، إلى جانب أركانه، شيوعي روسي شاب أثار لدي الانطباع بأنه ليس فقط ملحقا بالباشا يسهر على راحته خلال إقامته في موسكو، بل يتجسس عليه أيضا».

عرض جمال باشا على فوجت الانضمام إلى أركانه كضابط، لكنه رفض بعد فترة تفكير قصيرة، لأن قبوله أن يكون ضابطا أفغانيا يلزمه بتقديم معلومات إلى المبعوث الروسي في كابول. أخيرا، وفي 21 تشرين الأول عام 1921 أرسل كتابا إلى تشيتشرين يبلغه عزمه على العودة إلى ألمانيا، بعد أن رأى نفسه منخرطا في صراع ولاءات لا حل له: «هل كان علي التجسس على جمال باشا لصالح الحكومة الروسية؟ وهل عرّفوني في موسكو لهذا السبب على المبعوث الروسي في كابول؟».

بين برلين وموسكو

بينما انفتحت ثغرات في العلاقة بين البلاشفة واللاجئين من ساسة الأتراك الفتيان، توطدت علاقات برلين مع موسكو. شرح فيكتور كوب، القائم بأعمال روسيا في برلين، في رسالة تفصيلية بعث بها يوم 7 نيسان عام 1921 إلى تروتسكي مهام وأهداف «مجموعة روسيا الخاصة»، وقال إن مهمتها الرئيسة تكمن في تعاون ألمانيا والسوفييت في صناعة السلاح، لتفادي بنود معاهدة فرساي حول نزع السلاح والتسلح. وأضاف أن الأمر يتعلق هنا بتطوير وبناء طائرات قتال، وإنتاج أسلحة وذخائر من أجل جيش الرايش وروسيا السوفييتية. ثم غدت صلات البلدين أشد وثوقا، حين عقدت يوم 6

أيار 1921 اتفاقية تجارية ألمانية / روسية مؤقتة، وباشر وفد تجاري روسي عمله في برلين.

اتخذ نيدرماير لنفسه في الفترة اللاحقة اسما ينم عن خيال هو «دكتور نويمان»، وأمضى أشهر صيف عام 1921 في روسيا، لدعم صناعة السلاح الروسية. وكان سيكت قد أخبر مطلع حزيران من العام ذاته مستشار الرايش بالعناصر الجوهرية في أفكاره الاستراتيجية، دون إبلاغ موظفي الخارجية وممثليها في موسكو بها. عندما علمت وزارة الخارجية في برلين برحلة نيدرماير، طلبت توضيحا من ممثلها المؤقت في موسكو، فأخبرها قائلا: «استطعت التأكد من أن المقدم نيدرماير، مرافق وزير جيش الرايش، أمضى هنا أشهرا عديدة بحجة إجراء دراسات اقتصادية . . . وقيل لي إن إقامته حملت طابعا سريا صارما، وأن مستشار الرايش السيد فيهرنباخ والسيد وزير خارجية الرايش دكتور سيمون يعرفان مهمته».

تفقد نيدرماير منشآت صناعة سلاح، وترسانات بحرية في موسكو وبطرسبرج، برفقة نائب مفوض الخارجية كاراخان، وفيكتور كوب، وجوستاف هيلجر، مترجم السفارة الألمانية القدير لغويا ومعرفيا. لم يبق وضع مواقع الإنتاج السوفييتية المأساوي خفيا عن أعين الزوار الألمان، ومع ذلك أحدثت رحلة نيدرماير المزيد من الحركة في التعاون العسكري السوفييتي / الألماني. وفي آب من عام 1921 طلب نيدرماير من ممثل مصانع يونكرز في برلين تلمس إمكانية تعاون شركته مع روسيا، وألمح إلى أن حكومة الرايش خصصت أموالا كثيرة لخدمة هذه الخطط، وقال إن أكثر شركات صناعة السلاح أهمية أرسلت خبراء مشهورين إلى روسيا.

تفاوض أواخر أيلول عام 1921 أعضاء في المجموعة الخاصة «ر» هم نيدرماير وتشونكه وشوبيرت والعقيد هاسه، مع مفوضين سوفييت حول تفاصيل التعاون بين البلدين، أثناء محادثات سرية جرت في المنزل البرليني

التابع لمستشار الرايش اللاحق فون شلايشر. وأخبر تشونكه فون سيكت في باد كيسينج عن المحادثات في مطلع تشرين الأول، ووجه لينين في موسكو تروتسكي بأمر خطي إلى ضرورة استقصاء جميع إمكانات التعاون مع الألمان.

لم يكن سيكت راغبا في اتخاذ قرارات خلال استجمامه. لكنه التقى يوم 8 كانون الأول عام 1921 في برلين مع الممثل السوفييتي الجديد نيكولاي كريستنسكي، واستخدم منزل المستشار شلايشر الخاص من جديد مكانا للقاء السري. كان الموضوع الذي بحثاه هو تمويل التعاون في مجال التسلح، الذي بدأ في منعطف عام 1921/ 1922، حين دفع مدير شركة لويد في شمال ألمانية ومستشار الرايش اللاحق فيلهلم كونو مبلغ 150 مليون مارك ورقي، أو ما يعادل ثلاثة ملايين مارك ذهبي، إلى قائد المجموعة الخاصة «ر»، من أجل تمويل التعاون السري مع البلاشفة. وسافر في كانون الأول وفد ألماني يضم ضباطا وممثلين عن شركة يونكرز إلى موسكو، حيث تفاوض مع تروتسكي ورئيس أركان الجيش بافل ليبيديف. وقد ضم الوفد نيدرماير، ولأن العقيد هاسه كان يخاف «طبعه المغامر»، فقد ألحق به الملازم الأول المتقاعد شوبيرت.

عاد نيدرماير بصحبة راديك إلى برلين يوم 17 كانون الثاني عام 1922، فكلف سيكت مرافقه السابق، الرائد هربرت فيشر، إجراء مفاوضات معه. وفي 10 شباط حدث لقاء بين الجنرال ومبعوث البلاشفة، الذين كان مطلبهم جليا: بناء صناعة سلاح خاص بهم بأموال وخبرة ألمانيتين. وقد وقع نيدرماير يوم 15 آذار اتفاقا مؤقتا باسم قيادة الجيش مع شركة يونكرز يعدها بتلقي دعم مالي من حكومة الرايش مقابل انخراطها في التعاون الروسي / الألماني. لكن الحكومة السوفييتية لم تعط موافقتها على الاتفاق إلا يوم 12 كانون الأول عام 1922، بعد مرور تسعة أشهر على توقيعه في برلين. هكذا تلقت يونكرز الموافقة على بناء مصنع طيران في فيلي غرب موسكو، سينتج

ثلاثمائة طائرة في العام. ومنحت حق الطيران فوق الأراضي السوفييتية نحو فنلندا والسويد، وإلى فارس وأفغانستان. لكن نجم المصنع في فيلي كان سيئا، وأدى إلى انهيار الشركة عام 1925. ويقال إن الاستخبارات العسكرية في موسكو عملت بحزم ضد المشروع[25].

حمل البروفيسور هوجو يونكرز نيدرماير المسؤولية عن الكارثة، وزعم أن طريقته في التفاوض في آذار عام 1922 كانت سبب انهيار شركته في تشرين الأول من عام 1925، وطلب تعويضات من الرايش استنادا إلى وعود نيدرماير، التي تبين أنها كانت خاطئة. كان نيدرماير قد أثار قبل توقيع الاتفاق توقعات شفهية لم تلتزم بها فيما بعد دوائر الحكومتين السوفييتية والألمانية، حتى أن رئيس محكمة الرايش ووزير الخارجية السابق د. سيمون، الذي استدعي كحكم، أكد في وثيقة مكتوبة قدمها يوم 5 حزيران 1926 إلى حكومة الرايش «أن نقطة انطلاق مجمل التطور المؤسف، الذي عاشه مشروع اليونكرز، يرجع في رأيي، وبطريقة يمكن إيراد براهين قاطعة عليها، إلى المغامرة الروسية، التي شجعت وزارة جيش الرايش، وبالدرجة الأولى منها الرائد فون نيدرماير، البروفيسور يونكرز عل خوضها». يضيف رئيس محكمة الرايش: «وقد قطعت منذ البداية وعود للسيد يونكرز والحكومة الروسية بتوظيف أموال لبناء طائرات تفوق كثيرا المبلغ البسيط الذي تذكره الاتفاقية المكتوبة، الموقعة في آذار من عام 1922، بلغ مجموعها 600 مليون مارك على لساني السيدين نيدرماير وبوهل». قرأ وزير الخارجية شتريزيمان وثيقة رئيس محكمة الرايش، التي صارت موضوع جلسة وزارة الرايش بتاريخ 7 حزيران 1926. إنه لأمر محير أن يكون نيدرماير قد خرج سالما من المشكلة، وأنه لم تترتب عليها أية نتائج بالنسبة إليه وإلى العمل السري مع الاتحاد السوفييتي.

25. ألكساندر نيكريش: مرجع سابق، ص 46 وما يليها.

لم يقابل نيدرماير خلال إقامته الشتوية عام 1921/ 1922 راديك وتروتسكي وحدهما، بل قابل كذلك لينين. وأخبر بعد سنوات كثيرة حفيده وابنه بالمعمودية عن معرفة لينين باللغة الألمانية: «لقد تحدث الألمانية أحسن مني[26]»، وقال إنه وجد نقاط التقاء بين لينين وبينه، منها أن قائد البلاشفة عاش عامين في شفابينج، وكتب كتابه الشهير «ما العمل» بين عامي 1900 و1902 في جامعة ميونيخ وحي الفنانين، وأصدر المجلتين الثوريتين «إيسكرا» و«ساريا»، وسكن أخيرا، في شارع القيصر، على بعد دقائق قليلة سيرا على الأقدام من شارع أينمايلر رقم 7، حيث كان يعيش والدا نيدرماير منذ الحرب العالمية.

لم يستغل نيدرماير إقامته صيف عام 1921 من أجل إجراء محادثات مع قيادة الكرملين وتفقد مصانع سلاح مهترئة وحسب، بل تابع أيضا اهتمامات شخصية، فقد أتاحت طرق الاتصال الخفية بين برلين وموسكو وكابول فرصة استعادة أمتعة بعثة أفغانستان الألمانية. كان كورن فاجنر قد ركن ممتلكات البعثة في غرفة مغلقة من قصر حاكم حيرات، وقد أزف الوقت الآن لجلبها بمعونة البلاشفة إلى برلين، علما بأن نقلها من حيرات عبر طشقند إلى موسكو استغرق ثلاثة أشهر.

كانت الأمتعة مكونة من 22 صندوق ثقيل، وحقيبة ورزمة كبيرة[27]. ذكر نيدرماير في مذكرته غير المؤرخة من عام 1920 أن الأمتعة ضمت أيضا خططا عملياتية ضد الهند، كان بوسعه وضعها تحت تصرف البلاشفة. فهل فعل هذا؟. ذلك ما لا يعرفه أحد. مهما يكن من أمر، فقد ترك نيدرماير الأمتعة أول الأمر لدى رجل ثقة في موسكو، بعد أن وافقت الجهات

26. هذا ما قاله نيدرماير يوم 8 شباط 1998 في ميونيخ.

27. تابع الشجار المؤسف بين نيدرماير وفون هانتيج حول استعادة أمتعة البعثة بمساعدة البلاشفة في: الأرشيف البروسي ـ أرشيف وزارة الخارجية، تحت رقم 77898.

الحكومية على نقلها مجانا. لتجنب الطريق البري عبر بولونيا، ذهبت الشحنة أول الأمر من موسكو إلى بطرسبرج، وشحنت من هناك بالباخرة إلى شتيتين، لتصل في النهاية إلى وزارة جيش الرايش في برلين. وقد لفت النظر أن حجم الحمولة كان لدى وصولها إلى برلين أكبر بكثير مما كان قد أعلن عنه، فقد كانت تشمل الآن 30 قطعة أمتعة كبيرة. أما نيدرماير فقال إن الصناديق الثمانية الإضافية، الثقيلة جدا، كانت تضم «كتبا تبرعت بها» الأكاديمية الروسية للعلوم.

بوصول الأمتعة إلى برلين انفجر من جديد الصراع القديم بين نيدرماير وهانتيج. فقد رجا نيدرماير وزارة الخارجية في كتاب سري سؤال السيد هانتيج إن كان ما قاله حاكم حيرات صحيحا حول تلقي النمساوي فينهريش شفارتس، الذي بقي في أفغانستان بعد رحيل البعثة الألمانية، تفويضا من هانتيج بإخراج صور ووثائق من المعسكر. وفي 26 أيلول زود نيدرماير وزارة الخارجية تأكيدا من فينهريش يؤكد صحة الواقعة، واقترح عليها توزيع قطع الأمتعة في وزارة جيش الرايش، وأبلغها أنه أناب عنه أحد المقربين منه، نائب القبطان كورت فاجنر.

أنكر فون هانتيج، الذي كان آنذاك قائما بالأعمال الألمانية في ريفال ـ تالين حاليا ـ إنكارا قطعيا معطيات نيدرماير، وأصر على توزيع الأمتعة في وزارة الخارجية. هذا الخلاف نجم عنه تبادل رسائل محزن، طويل وبيروقراطي انتهى بإعلان نيدرماير أنه لم يعد يأبه بالمكان الذي ستأتي منه الأمتعة، ما دام المتلقي هو وزارة جيش الرايش. هكذا، فتحت الأمتعة يوم 28 كانون الأول عام 1922 في وزارة الخارجية، وناب كورت فاجنر وكارل فوجت عن نيدرماير، ومثلت فون هانتيج آنسة اسمها بايل. وقد دون المحضر ملكية نيدرماير: أربعة صناديق خشبية تضم «نوافذ خشبية قديمة»، «حجر محطم»، وصندوق يحتوى مجموعة جيولوجية، وصندوق ملئ بالكتب، وثلاثة صناديق تضم بلاطا، وصندوق فيه مواد مختلفة. صار

نيدرماير خلال بعثة أفغانستان عبد هوس هو هواية الجمع، وباستثناء زوج من الأحذية الشتوية، أعيد إليه أيضا حوض الاستحمام الخاص به.

سلم نيدرماير البلاط والحجر المحطم إلى المتحف الإسلامي في برلين، فثمن فريدريش فون ساره عام 1924 في «جريدة الأدب الألماني» هديته: «أهدى نيدرماير إلى المجموعة الإسلامية، التي يضمها متحف القيصر فريدريش في برلين، بسخاء قلبي عددا من ألواح بلاط الموزاييك هي أمثلة نموذجية لزخرفة أبنية القرنين الخامس والسادس عشر، وأهدى كذلك إلى المجموعة لوحا رخاميا كبيرا، جميلا ومنقوشا بطريقة تزيينية كان جزءا من إحدى مآذن المصلى قرب حيرات»[28]. لا تزال قطع نيدرماير التذكارية في متحف الجزيرة البرليني إلى اليوم.

موت ثوري

بدأ أنور باشا يفك علاقته مع موسكو في صيف عام 1921، لاقتناعه أن البلاشفة يستخدمونه كأداة وحسب، وأنهم لا يريدون تحرير الشرق الإسلامي بل إشاعة الفوضى فيه، لإقامة سيطرتهم الخاصة على عالم إسلامي ضعيف سياسيا واجتماعيا. أما الخطوة الأولى في هذا المخطط فكانت طرد أمير بخارى، وتنصيب حكومة سوفييتية عملت كذراع ممتدة موسكو.

هكذا بدأ أنور باشا النضال ضد البلاشفة، وأوعز إلى أنصاره بإعلانه أمير تركستان وإقليم ما وراء قزوين. في حين كان يريد لمملكته الطورانية الموحدة أن تضم جميع شعوب آسيا الوسطى التركية، وتكون أكبر من إمارتي بخارى وشوا مجتمعتين. وشجعه في اعتقاده أن الثائرين الذين كان يقودهم أحرزوا انتصارات مهمة في كانون الثاني وشباط من عام 1922.

أخبرت السفارة الألمانية في موسكو يوم 19 آذار 1922 أن أنور باشا يعمل بنجاح ضد الحكومة السوفييتية إنطلاقا من فرغانة، وأن أفغانا مزودين

28. فريدريش ساره: كتاب ألماني عن أفغانستان. في جريدة الأدب الألماني 45، عام 1924.

بأسلحة إنجليزية يدعمونه. استولت وحدات الباشا على عشق آباد في أيار عام 1922، فسقط بذلك القسم الأكبر من جمهورية سوفييتات تركستان بين يديه، أما قادة البلاشفة الذين أمسك بهم، فقد أعدمهم شنقا.

لم يتفق هذا التطور مع نوايا أصدقائه الألمان، فهم لم يرسلوه إلى موسكو كي يضعف البلاشفة في آسيا الوسطى، ويخفف بإضعافهم الضغط عن البريطانيين. لذلك اتجه اهتمام جيش الرايش إلى كمال باشا وحكومة أنقرة التركية القومية. وقد أخبر فيدنفيلد، ممثل ألمانيا في موسكو يوم 15 أيار 1922 أن السفير التركي سأله إن كانت ألمانيا تتمسك برغبتها في إرسال ممثل رسمي إلى أنقرة، وأضاف أن «السيد نويمان» ـ أي نيدرماير ـ أخبره عن هذه الرغبة وسمى له العميد فالكنهاوزن كرجل يمكن أن يتولى هذه المسؤولية. عقدت المفاجأة لسان فيدنفيلد، عندما قال السفير إنه استوضح أنقرة موقفها من فالكنهاوزن، وأضاف إنه سيكون شاكرا إذا ما تلقى تأكيدا من برلين لما سمع. بسؤاله عن صحة ما قاله السفير، قال نيدرماير إنه ذكر فالكنهاوزن على أساس غير رسمي فقط، مع أنه ترك انطباعا لدى السفير التركي بأنه يتصرف بتكليف رسمي، كما أن قربه من سيكت منح تصريحاته الخاصة وزنا سياسيا.

تلاشت منذ مطلع عام 1922 آمال برلين بتقويض النفوذ البريطاني في الشرق بمعونة ساسة المهجر الأتراك الفتيان. كان جمال باشا صيف عام 1922 في برلين، وسافر في ختام زيارته عبر جورجيا إلى كابول، لكنه قتل ومرافقاه يوم 24 تموز في أحد شوارع العاصمة الجورجية تفليس. هل كان الاعتداء وقتل طلعت باشا في برلين عملا ثأريا أرمنيا، أم أن التقارير الصحفية، التي جعلت قتل الباشا عملا من أعمال التشيكا، جهاز الاستخبارات البلشفي الرهيب، كانت صحيحة؟. هل كان جمال باشا ينوي دعم أنور باشا، الذي كان يرفض تحكم موسكو به وقاتل الآن في آسيا الوسطى ضد المتسلطين السوفييت؟.

سقط أنور باشا يوم 4 آب عام 1922 جنوب غرب بخارى خلال معركة خيالة يائسة ضد وحدات فرسان متفوقة من الجيش الأحمر، طوقته وعدد قليل من الموالين له، وقطعت جثمانه بالسيوف. خفف سلوك أنور باشا الانفرادي، وانقلابه على البلاشفة، كما خففت سياسة موسكو القمعية في آسيا الوسطى والقوقاز أعباء لندن الجيوستراتيجية. واثبتت ساسة المهاجر الأتراك الفتيان أنهم غير ملائمين لتسديد الضربة الحاسمة ضد المصالح البريطانية في الشرق، التي كان يريدها نيدرماير وسيكت.

بترسيخ حكومة كمال باشا القومية في أنقرة، وتأسيس ممالك هاشمية تحت حماية بريطانية، ومناطق انتداب بريطانية وفرنسية، هدأ الوضع عام 1922 في الشرق الأدنى، وبرز تكوين سياسي جديد حل محل نظام ما قبل الحرب، اختفت منه الخلافة والإمبراطورية العثمانية، وفقد الأتراك الفتيان أهميتهم السياسية بصورة نهائية فيه. مع ذلك، كان فون سيكت يذكر أنور باشا بتعاطف، ويتذكر كيف استقبله للمرة الأخيرة في بيته قبل سفره إلى موسكو. كانت عودة صهر السلطان إلى اسطنبول ممنوعة، بقرار من الحلفاء أول الأمر ثم من أتاتورك، الذي لم يكن هناك مكان لأنور باشا إلى جانبه. لكن حياة المهاجر لم تكسر إرادة الباشا، مع أنه كان يطارد في النهاية هدفا خياليا هو توحيد شعوب الترك في آسيا الوسطى تحت سلطته. عندما أخبر أحد مواطني أنور باشا سيكت عن موته وحيدا في السهب، أجابه بالفرنسية وهو يربت على كتفه: «ماذا كنت تتوقع، هذه نهاية رجل ثوري»[29].

رفيق درب

لم يذهب نيدرماير إلى ميونيخ وبافاريا إلا في المناسبات، منذ انتقل عام 1920 إلى برلين ليكون مرافق وزير جيش الرايش ومؤتمن سيكت، فقد

29. انظر سيكت: ذكريات عن أنور باشا. في تركة سيكت. الأرشيف البافاري، رقم 247/ 50.

استولت عليه الديناميكية السياسية في عاصمة الرايش، التي لم يستطع الإفلات منها بعد ذاك. لكن نيدرماير واصل رعاية صلاته الشخصية والعلمية في موطنه البافاري، فكتب في 21 تشرين الثاني 1921 رسالة إلى مواطن وعالم مرموق من موطنه كان قد انتسب مثله إلى دائرة التلامذة المقربين من الجغرافي دريجالسكي، الذي أشرف على رسالة دكتوراه أعدها نيدرماير عام 1919.

رسم نيدرماير صورة مغرية في رسالته[30]، وأوحى لمتلقيها أن بوسع عمله العلمي التأثير في سياسة برلين واستراتيجية موسكو: «تلتقي اليوم أفكار النافذين من القوم في البلدين عند اتجاه لطالما بينته لنا، عزيزي البروفيسور، المرة تلو المرة بطريقتك البارعة والمقنعة، دون أن تجد للأسف غير القليل جدا من التفهم حتى الآن». قرأ قادة البلاشفة في الكرملين كتب الأستاذ البافاري المحافظ: «لم يكن مجرد مصادفة أنني رأيت قبل شهرين على مكتب راديك في الكرملين كتابكم «داي نيهون»، وتحدثت معه خلال جزء كبير من المساء عن قضايا الشرق الأقصى». أبلغ نيدرماير متلقي الرسالة سرا صغيرا: «علينا أن نعرف أن راديك هو الصانع الرئيس لسياسة روسيا الخارجية، وأنه هو الذي يكتب مذكرات تشيتشرين».

لم يكن متلقي الرسالة أحدا آخر غير اللواء المتقاعد الأستاذ الدكتور كارل هاوسهوفر، دماغ الجيوسياسة الألمانية المفكر، الذي ولد يوم 27 آب عام 1869 للاقتصادي الشهير ماكس هاوسهوفر، وانتسب إلى أسرة تمثلت فيها بطريقة مؤثرة القدرة الإبداعية الثقافية عند برجوازية التعليم القومية الليبرالية في بافاريا. كتب توماس مان في تشرين الثاني من عام 1894 من ميونيخ إلى صديق له: «أسمع محاضرات عن تاريخ الفن، والاقتصاد

30. انظر: هانس آدولف جاكوبسون: كارل هاوسهوفر ـ حياته وعمله، الجزء الثاني: رسائل مختارة 1917 ـ 1946.

القومي، وتاريخ الأدب، وعلم الجمال، ومآسي شكسبير. ويكاد الاقتصادي القومي الذي يدرسه الأستاذ الشهير هاوسهوفر، أن يكون الأكثر إثارة للاهتمام بين هذه الاختصاصات جميعها».

انتسب كارل هاوسهوفر إلى الجيش البافاري عام 1887، وكان مدفعيا مثل نيدرماير. ثم أنهى دورة تدريبية في أركان الجيش العامة، وقبل فيما بعد في أركان الرايش الألماني العامة الكبيرة. كان الضابط البافاري الشاب منفتحا على العالم وخبيرا به، بعد أن تلقى أمرا في خريف عام 1907 بالذهاب إلى اليابان، فوصل إليها عبر الهند وسنغافورة وهونج كونج وشنغهاي، ووضع قدمه لأول مرة في شباط من عام 1908 على أرض يابانية في ناجازاكي. بقي الرجل في اليابان حتى عام 1910، وعمل أول الأمر في سفارة ألمانيا في طوكيو، ثم خدم لاحقا في فوج مدفعية ميدانية يرابط في مكان قريب منها.

ظهر كتاب هاوسهوفر «داي نيهون» في ميونيخ خلال آذار من عام 1913، وقدم المؤلف عبره كشف حساب عن تحاربه اليابانية. حمل هاوسهوفر انطباعا عميقا عن أخلاقيات الحرب القديمة، التي يعتنقها سلك الضباط اليابانيين، ارتبطت مع التطور الاقتصادي الديناميكي للبلد فأنجبت قوة توسعية عسكرية واقتصادية هائلة، جعلت الإمبراطورية / الجزيرة تتطور خلال إصلاح الميجي ردا قوميا خاصا على مطالبة القوى البحرية الأنجلوساكسونية، وخاصة منها الولايات المتحدة الأميركية، بانفتاحها على سلع الغرب وعاداته الحياتية. إن الشبان الذين تحلقوا حول القيصر ميجي أتوا في معظمهم من الجنوب، الذي لعبت عصبه حتى ذلك الوقت دورا هامشيا في سياسة الإمبراطورية، لكنها انطلقت الآن في رحلات تعليمية إلى أوروبا وأميركا، تريد التعلم من الإمبرياليين الأوروبيين والأميركيين كي تهزمهم بسلاحهم. أخيرا، أشارت الحرب الظافرة ضد روسيا عام 1904/ 1905 إلى نقطة ذروة زمنية لثورة الشرق الأقصى، التي قرنت التصنيع الغربي مع تقاليد ثقافة حربية وأخلاقية عمرها مئات السنين.

شجع رد فعل اليابان الحازم على إمبريالية روسيا والقوى البحرية الغربية كارل هاوسهوفر على العمل العلمي، فأنجز أطروحة دكتوراه عام 1913 تحت إشراف دريجالسكي موضوعها: «حصة ألمانيا من الفتح الجغرافي لليابان وللمجال الأرضي ما بعد الياباني ومن تسارعه عبر الحرب والسياسة الحربية». كما استقصت أطروحته من أجل الإجازة الدراسية عام 1919: «الاتجاهات الرئيسة في التطور الجغرافي للإمبراطورية اليابانية بين 1854 حتى 1919». وصار عام 1921 أستاذ شرف في جامعة ميونيخ.

تحدثت مارتا فون هاوسهوفر، زوجة الأستاذ الرفيعة الثقافة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والروسية واليابانية، وتحدرت، مثل زوجات إيريش فون دريجالسكي وتوماس مان وهانس فون سيكت، من البرجوازية الكبرى اليهودية، فهي ابنة لودفيج ماير، مستشار البلاط اليهودي، الذي انتقل قبل اقترانه بـ كريستينه فون دوس من اليهودية إلى الكاثوليكية، وسمى نفسه منذ ذلك الوقت ماير ـ دوس. من المعروف تاريخيا أن البرجوازية اليهودية الكبرى اندمجت بالنخب القيادية القديمة للدول الاتحادية وشكلت نخبة الرايش الجديدة، التي كان ماكس فون أوبنهايم أحد أبرز ممثليها. وللعلم، فقد ساندت مارتا عمل زوجها العلمي وتفانت في معاونته.

عانت الهزيمة العسكرية، كما عانى انفجار الثورة، نهاية عالم أسرة الجنرال، الذي بدا خلال عصر ولي العهد وكأنه يقوم على أسس دائمة ووطيدة. وقد أطلق هاوسهوفر، ومثله توماس مان، العنان لغضبه على قادة ثورة ميونيخ وجمهورية السوفييت، الذين كان معظمهم من يهود أوروبا الشرقية، واعتبر كورت أيسنر ورفيقته ساره سونيا اليهودية «زوجا من العكاريت»، وتذكر في قصيدة سيئة كتبها بعد نهاية الحرب بفترة قصيرة كيف انتزع «أفاقون يهود غرباء» خلال الثورة الصليب والوشاح عن ثيابه العسكرية، بينما كان أصله العائلي وميله الاجتماعي والأيديولوجي يحول بينه وبين قبول التعاون السياسي مع ثوريي الكرملين، الذين ما لبث أن قبل عرض نيدرماير

بالتعاون معهم، وأعلن استعداده للعمل مع كارل راديك والبلاشفة.

حددت حزمة من البواعث سلوك هاوسهوفر الجديد، بينها أن نيدرماير لامس رغبته في الفاعلية السياسية وطموحه العلمي، وبينها اعتبارات مالية لعبت دورها في نهاية عام 1921 الصعب اقتصاديا، وأخيرا زوجة هاوسهوفر الذكية والعملية، التي رأت عرض نيدرماير من جانبه العملي: «ما العمل؟. إنني لا أعرف من أين ستأتي بالوقت لمزيد من العمل المكتبي، وأعرف أنه لا يحق لك أنت بالذات أن تتقاعس، عندما يدعو الساسة العمليون العلم إلى التعاون معهم، لأنك أدنت على الدوام عدم التعاون». ثم تأتي حجة مقنعة: «إن من حقك على كل حال طلب تعويض مناسب».

تردد كارل هاوسهوفر، لأن الجوانب المالية أربكته، ثم قبل في النهاية عرض نيدرماير. وفي 14 كانون الأول أكد نيدرماير وصول رده الخطي: «أشكركم كثيرا على عرضكم القيم بوضع رأيكم الخبير في خدمة قضيتنا السياسية. وهم ينتظرون هنا اقتراحاتكم بخصوص الأدبيات وطلباتكم المالية». سافر نيدرماير إلى موسكو بعد كتابة هذه الرسالة بفترة قصيرة، فرعى المقدم فيشر، زميله في «مجموعة روسيا الخاصة»، الصلات مع هاوسهوفر في غيابه، على أن توجه رسائل نيدرماير إلى عنوانه، مع الحرص على عدم ذكر اسم نيدرماير أو انتمائه إلى جيش الرايش.

أرسل نيدرماير عبر «رجله المؤتمن» بيرنهارد فوريك، الشخصية المتقلبة التي يحيط الغموض بولائها وارتباطاتها، رسالة من موسكو بتاريخ 8 كانون الثاني 1922 إلى هاوسهوفر يرجوه فيها من جديد التأثير على البلاشفة وسياستهم في الشرق الأقصى: تحدثت هنا مرات كثيرة مع شخصيات نافذة عن مجمل القضايا التي تثير اهتمامكم، وعلمت أنهم يخصونكم بأعظم ثقة وأكبر دعم. أما الأهداف الرئيسة لعملكم فهي: «استقصاء نوايا اليابان القارية في الشرق الأقصى والتمهيد لتفاهم بين روسيا وبينها، على أن تعتبروا

صلاتكم السرية مع روسيا «أكثر أسرار الدولة سرية». وفي 11 كانون الثاني، بعد أيام ثلاثة فقط، وصلت رسالة ثانية من نيدرماير تطلب إليه السفر على نفقة الجيش إلى برلين في نهاية كانون الثاني إن أمكن، للقاء مفوضين من موسكو أحدهما راديك، الرجل الذي يحظى بتقدير عظيم لدى نيدرماير. حملت الرسالة توقيع «نويمان»، اسم نيدرماير السري.

وصلت ملاحظات هاوسهوفر إلى متلقيها في الكرملين، فقد أكد المقدم فيشر في رسالة إلى الأستاذ تلقي ما أرسله، ووافاه بالمقابل بكتاب من فوريك يخبره عن صلات القيادة السوفييتية مع اليابانيين، ويعد في الوقت نفسه بإرسال معلومات إضافية من موسكو.

توقع القراء على نهر الموسكفا أن تكون تقويمات الأستاذ البافاري أكثر فائدة لهم. وأخبره نيدرماير في الثالث من تشرين الثاني 1922 أن ميخالسكي ألمح خلال حديث طويل إلى أن الجانب السوفييتي لم يعد يستطيع تحمل نفقات تقويماته المرتفعة: «ورجاني التعبير عن أسفه الخاص لكم، ومطالبتكم الاستمرار في وضع عملكم ومعرفتكم في الخدمة، حتى إن تم ذلك خارج الإطار الذي كان قائما إلى الآن». ثم تلقى في 11 تشرين الثاني رسالة من رجل الارتباط في موسكو تتسم بقدر عظيم من التهذيب يخبره ميخالسكي فيها نهاية العمل بالتقويمات المأجورة، ويقول: «إن موردنا، السيد يوليوس فوكس (ربما كان اسم فيشر السري) 19 شارع تسيمر، قدر الأموال المطلوبة خلال نصف العام المقبل بمليوني مارك ... مثل هذا المبلغ الكبير يتخطى حدود صلاحياتي ويفقدني ـ لأسفي الشديد ـ القدرة على مواصلة شراء الكتابات اليابانية والصينية». ويشير ميخالسكي في الوقت نفسه إلى حرصه على استمرار الصلات معه، ويأمل أن يلقاه في برلين.

لم تنه رسالة ميخالسكي في تشرين الثاني 1922 صلات هاوسوفر مع موسكو، فقد أقيم اتصال عبر نيدرماير مع ميليوس دوستويفسكي، خبير

الصين، الذي هنأ هاوسهوفر بمناسبة عيد ميلاده الستين باسم ستين مثقفا روسيا. ولم ينفرد البلاشفة بقراءة هاوسهوفر ومجلته المكرسة للجيوسياسة، بل قرأه كذلك المنتمون إلى الأنتلجنسيا البرجوازية، التي بقيت في روسيا.

أخيرا، تطورت علاقة نيدرماير مع البروفيسور إلى صلة رفاقية مثلما تطورت أيضا صداقة أخرى ربطته بشخص آخر تعرف عليه خلال سيطرة السوفييت المأساوية على ميونيخ هو طالب شاب وملازم طيار سابق اسمه رودلف هيس، الذي عرض عليه ليلة 3 / 4 تموز، وهو آنذاك لواء متقاعد وأستاذ جامعي في الحادية والخمسين، صداقته مع أنه كان ابن 25 ربيعا، وانتسب قبل أيام ثلاثة إلى جماعة يمينية متطرفة يقودها محرض نمساوي غامض من براوناو على نهر الأوب. عندما تزوج رودلف هيس، كان هاوسهوفر شاهد زواجه، وحضر قائد الحزب المتطرف، الذي سيصير هيس نائبا له، الحفل بدوره. أخيرا، حين ولد الابن الذي طال انتظاره عام 1937، أسماه هيس كارل ـ أدولف، لتذكيره على الدوام بصديق أبيه الحميم وقائده السياسي. وللعلم، فإن علاقة نيدرماير بهاوسهوفر لم ترق في أي وقت إلى مستوى هذه الحميمية الحالمة.

عدو

لم يضع نيدرماير عام 1922 أسس عمله المشترك وصداقته التالية مع هاوسهوفر وحسب، بل جعل من نفسه أيضا عدوا لدودا لأولريش جراف فون بروكدورف ـ رانتساو، وزير خارجية ألمانيا السابق وسفيرها المقبل في موسكو. اصطدم البرجوازي الصاعد من بافاريا من جديد مع أرستقراطي من شمال ألمانيا معتز بنبالته. ومن جديد تنافس الضابط الطموح مع ديبلوماسي ملتزم بالأنظمة. وقد قدر لبروكدورف ـ رانتساو أن يبدي في برلين وموسكو قدرا من النفور حيال نيدرماير يماثل ما أبداه تجاهه في زمان آخر ومكان آخر فيرنر أوتو فون هانتيج. انطلقت العدواة وتفاقمت بين نيدرماير وبروكدورف ـ

رانتساو بسبب الشقاق المرير بين هانس فون سيكت وبينه الديبلوماسي، الذي قاد في أيار 1919 وفد ألمانيا إلى مفاوضات فرساي، بصفته وزير خارجية الرايش الألماني. فيما بعد، وجه سيكت، مستشار الوفد العسكري، تهمة إلى بروكدورف تفتقر إلى أي مسوغ، هي أنه لم يمثل مصالح ألمانيا بالحزم الكافي.

ولد الأمير عام 1869، عام ولادة كارل هاوسهوفر، لواحدة من أكثر سلالات نبلاء هولشتاين أهمية، لذلك لم ير في نفسه نبيلا صغيرا: أي «يونكرا»، بل رأى «عينا» له الحق في الامتيازات ذاتها التي تمتع بها خلفاء الأسر التي أسهمت بصورة مباشرة في تأسيس الرايش. عندما ورث من قريب له هو البارون بروكدورف ملكية أنيتنهو الصغيرة قرب شليزفيج، جعل ملكيته لها أساسا لارتباط اسمي بروكدورف ورانتساو.

كان الأمير وسفير ألمانيا اللاحق في موسكو يقدر أن يدعي، مثل نيدرماير، امتلاك شيء من الخبرة في إشاعة الفوضى السياسية والتواطؤ مع الثوريين، ذلك أنه كان خلال الحرب العالمية الأولى سفيرا في مملكة الدنيمارك المحايدة[31]، حيث التقى المستشار المالي للأتراك الفتيان، الاشتراكي اليهودي المولود في روسيا الكسندر هيلبهاند ـ بارفوس، الذي كان عميلا للرايش الألماني منذ عام 1915. اتفق اليهودي الثوري والألماني الأرستقراطي على تفكيك روسيا اجتماعيا وسياسيا، عبر تسعير توترات رايش القيصر الاجتماعية والإتنية والدينية، وتوحيد الاشتراكيين المنقسمين على أنفسهم ودفعهم إلى القيام بانقلاب عنيف، ليستطيع الرايش الألماني إنهاء حرب الجبهتين، بعد انتصار الثورة في روسيا، وزج قواه جميعها ضد الغرب وحسم الحرب بانتصار صريح.

31. ليو هاوبتز: أولريش جراف فون بروكدورف ـ رانتساو، ديبلوماسي ووزير في رايش القيصر والجمهورية. جوتنتجن 1984.

تلقى هيلبهاند ـ بارفوس أكثر من أربعين مليون مارك من حكومة الرايش لدعم عمله التخريبي والتثويري، خاصة وأنه كان قد أقام منذ صيف 1915 في كوبنهاجن المحايدة صلات تآمرية داخل روسيا، دعمها بروكدورف ـ رانتساو بكثير من الحرص والمال. عندما جعل لودندورف الأمير مسؤولا في فترة لاحقة عن تسريب لينين وتروتسكي وراديك إلى روسيا، لم يكن سلوكه خطأ، لأنه أراد صرف الأنظار عن مشاركة الجيش في المسؤولية.

قوَّم بروكدورف ـ رانتساو أهداف البلاشفة السياسية وطرقهم الثورية بطريقة متحفظة وباردة. لكنه لم يخش، شأنه في ذلك شأن نيدرماير وسيكت، من إقامة علاقات معهم. كما لم تحل سياساتهم القمعية القاسية، وتصرفاتهم الإرهابية تجاه النبلاء والكنيسة والفلاحين، بينه وبين أن يرى في لينين ورفاقه شركاء سياسيين، وقد انطلقت حساباته الباردة من حقيقة أن البلاشفة لن يترددوا في التعاون بإخلاص مع الرايش الألماني، إذا كان التعاون يخدم مصالحهم، كائنا ما كانت الجهة التي تمسك بمفاتيح السلطة في برلين. كتب الأمير عام 1921 يقول: «تحكم روسيا عصابة من المجرمين السفاحين، التي تعي جرائمها تمام الوعي، وفقدت أعصابها فهي لن تتردد في استخدام أية وسيلة للبقاء في السلطة، ولا بد من إعطائها على الأقل عامين آخرين من العمر، لاستحالة أن يقوم اليوم وفي المستقبل المنظور أي نوع آخر من الحكومة في روسيا» وأضاف: «علينا أن نحسب حسابا للبلاشفة وأن نعمل معهم أيضا». وفي صيف عام 1922 أتيحت الفرصة لانخراط الأمير في تنسيق وثيق مع «المجرمين السفاحين».

عندما تم توقيع معاهدة رابالو في 16 نيسان عام 1922، تخلت ألمانيا والاتحاد السوفييتي عن جميع المطالب الموجهة من أحدهما ضد الآخر والنابعة من الحرب العالمية. لم يكن هناك محاضر عسكرية إضافية في رابالو، لأنها لم تكن أيضا ضرورية بسبب الصلات السرية، التي كانت قائمة منذ عامين بين القيادة البلشفية وجيش الرايش، وجعلت من رابالو مجرد

توقيع سياسي ـ ديبلوماسي لاحق للتطورات التي كانت جهات عسكرية تدفع إليها منذ عام 1919/ 1920. غير أنه كان يمكن استئناف العلاقات الديبلوماسية والقنصلية الرسمية بكامل حجمها بعد رابالو. وبما أن حكومة الرايش كانت تريد سفيرا في موسكو، فقد عرضت المنصب على بروكدورف ـ رانتساو.

حدد السفير لنفسه خطوطا سياسية توجيهية دوَّنها يوم 8 تموز 1922 في مذكرة خاصة[32]، وهو الذي كان يرى في نفسه سياسيا واقعيا من الطراز البسماركي، ينتمي إلى سياسة متحررة من التفكير الرغبي. قال بروكدوف ـ رانتساو: «أعتقد أنني تخلصت بصورة جذرية خلال السنوات العشرة الأخيرة من الأوهام القليلة التي ولدت معها». واعتقد أن البلد الذي سأحل في المستقبل ضيفا عليه يعاني من ضعف سياسي واقتصادي يفوق ما تعاني منه ألمانيا، وتحكمه من مجموعة من المتعصبين الجامحين، الذين يبقون في السلطة بفضل الإرهاب وحده. كما أعتقد أن من المرغوب فيه والحتمي ضمن شروط محددة أن تعرف ألمانيا «بلشفية قومية محلية». «لا يتقبل الشعب الألماني في أغلبيته السليمة البلشفية الروسية / الآسيوية، لكن البلشفية القومية حتمية في ألمانيا وستقوم فيها، إن بقي المخرج من وضعنا المحزن الراهن مغلقا على صعيد السياسة الخارجية، وتم دفع الشعب الألماني التعيس والمعذب والمنهك والمخدوع والمضلل إلى اليأس الأخير، وهو الذي ترك فريسة أساليب التربية التي يطبقها عليه منافسو البارحة المتجبرون المتعسفون، وساديون أصابهم الشعور بالعظمة بالجنون، وجبناء راغبون في الثأر».

بعد وضع محددات عمله الفكرية بأسبوعين، دخل بروكدورف ـ رانتساو يوم 24 تموز 1922 عند الظهيرة إلى حديقة المستشارية الصيفية في

32. تبين هذه المذكرة بطريقة ناصعة طريقة تفكير بروكدورف ـ رانتساو. وهي موجودة في الأرشيف البافاري وأرشيف وزارة الخارجية تحت رموز ب ر ـ ن ل 2/11 هـ 22318.

برلين، حيث كان على موعد مع مستشار الرايش جوزيف فيرث، كان قد سبقه يوم 11 تموز 1922 لقاء أول شابته بعض البرودة مع سياسي حزب الوسط الكاثوليكي من بادن. توجه المستشار هذه المرة بمودة ظاهرة إلى الأمير، واعتذر عن المقابلة الأخيرة السريعة وغير المريحة، وبدأ يشرح برنامج سياسته الخارجية، الذي سرعان ما أصاب الأمير بالذعر، لأنه كان برنامج جيش الرايش بحذافيره، ولأن أفكار رئيس الحكومة كانت ملتزمة بأهداف وأساليب هانس فون سيكت.

شعر بروكدورف ـ رانتساو بالصدمة. لقد سبق أن اتهمه سيكت في فرساي بعدم الدفاع عن مصالح الرايش، وعليه أن يتبنى الآن كسفير مقبل في موسكو سياسة تخضع جديا لتأثير قيادة الجيش!. لم يتقيد الأمير برجاء المستشار المحافظة على سرية حديث الحديقة، بل دونه في مذكرة دقيقة ثبّت فيها اعتراف المستشار باتفاقه التام مع سيكت حول السياسة الألمانية تجاه بولونيا والاتحاد السوفييتي.

سجل بروكدورف ـ رانتساو أكثر أقوال المستشار أهمية بنصها الحرفي: «غالبا ما يساء فهم سياستي. إن صعودنا من جديد لن يكون ممكنا إذا لم يكن الشعبان الألماني والروسي في وضع سليم، وتعاونا من جديد كجارين تربطهما أواصر الصداقة والثقة». وقال عن اتفاقية رابالو، التي لاقت مقاومة شديدة من الديموقراطيين الاجتماعيين وخاصة منهم رئيس الرايش إيبرت: «ماذا تفعل بأحزاب تنسب نفسها إلى شعار «لا حروب أخرى على الإطلاق»؟. إنني لا اقبل وجهة النظر هذه، وأقول لكم دون لجلجة أنه يجب الإجهاز على بولونيا، وليس لسياستي من هدف آخر غير هذا». وأضاف محدثا سفيره المحبط: «كان يجب أن يعامل العسكريون بطريقة تجعلهم يعزفون عن التصرف باستقلالية وتهور. وقد اتخذ المستشار الآن كل ما هو ضروري لذلك، وحصر التعامل معهم به شخصيا».

تأثر الأمير كثيرا بالجو المفعم بالثقة الذي أحاطه المستشار به، لكن استعداد هذا السياسي المحلي الجاهل بالشؤون الدولية للمخاطرة السياسية أصابه بالدهشة. ومع ذلك، أعلن قبول عرض فيرث والذهاب إلى موسكو، يحدوه الأمل في أن يتمكن كسفير هناك من «مكافحة نتائج إملاء فرساي المشين بنجاح، وربما التخلص من عاره كله»، وإجراء تعديل يتسم بالحرص على أساليب السياسة الشرقية كما رسمها المستشار، لاعتقاده أن الاعتبارات السياسية لا العسكرية هي التي يجب أن تملي سياسة برلين. كان بروكدورف ـ رانتساو عازما على كبح تأثير جيش الرايش على العلاقات الألمانية / السوفييتية، وإضعاف النفوذ السياسي الذي يتمتع به عدوه سيكت، وأخذ زمام الأمور بيديه.

وقد لخص أفكاره في 15 تموز 1922، بعد أربعة أيام من حديثه مع المستشار فيرث، في مذكرة سرية كانت مجرد ورقة ضد سيكت، نصح فيها بالتخلي عن أي ارتباط عسكري مع الاتحاد السوفييتي، لأن التعاون مع الكرملين، الذي يتولاه ويعززه العسكريون، ليس فقط سابقا لأوانه وخطيرا، بل هو كذلك خاطئ بوجه عام. وحذر من توريط حكومة الرايش، ومن تفوق القوى الغربية العسكري، وأشار إلى أن التعاون العسكري مع موسكو سيحبط مسبقا أي تقارب ممكن مع إنجلترا.

تلقى سيكت نسخة من النص يوم 9 أيلول عام 1922. وسجل بعد يومين موقفه الخاص على اثنتي عشرة صفحة. بعد الحرب، قام المؤرخ فريتز إيبشتاين، الذي أبعده النظام النازي عن ألمانيا، بتحليل مذكرة بروكدورف ورد سيكت، ونشر الوثيقتين في مجلة «الشهر» التي تمولها جهات أميركية. لقد أدهشته دقة نبوءة سيكت بهزيمة بولونيا العسكرية عام 1939، ولاحظ بإعجاب الممتعض: «هذا هو الأسلوب الكلاسيكي، أسلوب فون كلاوزيفيتز وبسمارك ومولتكه».

انطلق رد سيكت على بروكدورف ـ رانتساو من تصوره الجيوسياسي الإجمالي الذي وضعه عام 1915، ومن فكرته حول حتمية حرب عالمية جديدة ستحسم في المستقبل شكل النظام العالمي بصورة نهائية. وألح على ضرورة عمل كل ما يلزم لجعل روسيا السوفييتية حليفا في الصراع القادم: «يدرس العسكريون داخل رؤوسهم العوامل المؤيدة والمعارضة للحرب في أكثر صورها وضوحا، لكن ممارسة السياسة تعني القيادة، وسيتبع الشعب الألماني رغم كل شيء قائده في الصراع من أجل وجوده. إن مهمتنا هي الاستعداد لهذا الصراع، الذي سيفرض علينا ولن نتمكن من تحاشيه».

وقف أوسكار فون نيدرماير خلال هذا النزاع بصلابة إلى جانب سيكت. في نهاية آب عام 1922 أخبر القبطان فالتر لوهمان، رجل ارتباط البحرية مع الجهات السوفييتية المعنية، السفير أن نيدرماير يحرض عليه، وأنه صرح كرجل سيكت في موسكو أن رجلا مسالما كبروكدورف ـ رانتساو لا يصلح سفيرا في الاتحاد السوفييتي.

كتب الأمير من جديد واحدة من مذكراته التفصيلية، ولخص يوم 6 أيلول عام 1922 معلوماته حول الصلات العسكرية السرية. لقد كان على اطلاع مدهش، وكان يعرف أن نيدرماير أجرى في نهاية عام 1920 على أبعد حد محادثات مباشرة مع تروتسكي بتكليف من سيكت، وأنه أجرى وسيسكت محادثات سرية مع فيكتور كوب في برلين، وزعم في النهاية أن كتابا سريا أرسله نيدرماير إلى السوفييت التقط ووصل إلى يدي الوزير الأول الإنجليزي لويد جورج.

أجرى بروكدورف ـ رانتساو يوم 7 أيلول 1922 محادثة مع مستشار الرايش، استنادا إلى هذه المذكرة، اعتبر خلالها مهمة عميل العسكر السرية فشلا مدويا. وقال في فقرة من مذكرته إن نيدرماير، الذي يسميه «نايدرماير ـ نايدر تعني الحاسد ـ قطع وعودا إلى السوفييت لم يلتزم الرايش بها إطلاقا،

لذلك رغبت جهات روسية نافذة أن لا تجري مستقبلا أية مفاوضات مع ممثلي جيش الرايش. إلى هذا قال بروكدورف للمستشار أن لويد جورج يمتلك رسالة سرية من نيدرماير.

بقيت مساعي الأمير دون نتيجة، لأن المستشار كان يقر من حيث المبدأ خط سيكت، فأبلغ يوم 16 تشرين الأول عام 1922 سفيره المقبل في موسكو مرة أخرى: «علينا أن نعمل كي نصير من جديد جيران روسيا، وأن نقتحم بولونيا إذا كان ذلك ممكنا». لم يوافق سيكت على تعيين بروكدورف ـ رانتساو إلا بعد أن رجاه وزير خارجية الرايش دكتور سيمون في 14 تشرين الأول عام 1922 سحب احتجاجه، ووقف الوزير بقوة وراء سفيره، ورفض بشدة فكرة قيادة الجيش الماسة بشرفه، التي ترى أنه يفتقر إلى الضمانات الشخصية الضرورية للتوجه الوطني. توجه الدكتور سيمون إلى عقل ووطنية سيكت قائلا: «لم يعد باستطاعتنا قبول حقيقة أن أكثر رأسين سياسيين لدينا كفاءة يعملان بعضهما ضد بعض».

قدم بروكدورف ـ رانتساو أوراق اعتماده في موسكو يوم 6 تشرين الثاني عام 1922، وفي 22 من الشهر نفسه تلقى سيكت من وزير جيش الرايش جيسلر تفويضا ينقل إليه المسؤولية عن العلاقات السياسية / العسكرية مع السوفييت. وكان مستشار الرايش الجديد فيلهلم كونو قد أبلغ قبل ذاك بالصلات السرية مع السوفييت، وفي 19 كانون الأول التقى سيكت في منزل شلايشر الخاص من جديد مع كارل راديك، أكثر شركاء نيدرماير أهمية، مما جعل النزاع بين الأمير وقيادة جيش الرايش حتميا.

1923 عام الأزمة

خُيرا، فإنه سكن في شارع القيصر، على بعد دقائق قليلة سكن احتلت خمس فرق فرنسية يوم 11 كانون الثاني 1923 منطقة الرور بحجة أن التعويضات التي حددتها معاهدة فرساي لم تدفع في الوقت المحدد. جعل

ميزان القوى العسكري الهجوم الفرنسية أمرا سهلا، فالرايش لا يحق له أن يمتلك بعد نزع سلاحه الكامل غير مائة ألف جندي يفتقرون إلى أسلحة ثقيلة، ومنطقة الرور ذات الأهمية الاقتصادية الحاسمة بالنسبة إلى ألمانيا كانت في أيدي الفرنسيين، المتفوقين بوضوح والمسلحين حتى الأسنان.

لم تكن ألمانيا عاجزة عن القيام بأعمال عسكرية في الغرب وحده، بل كانت عاجزة في الشرق أيضا، فالممر البولوني كان يفصل بروسيا الشرقية عن الرايش، وحدود بومرن ونويمارك وسيليزيا مجردة من التحصينات ومكشوفة بقوة نصوص معاهدة فرساي، بينما يقف على الجانب الآخر من الحدود جيش بولونيا الجديد، الذي سلحته ودربته فرنسا، وتعاظم كثيرا وعيه الذاتي واستعداد قيادته وقيادة دولته للتدخل بعد انتصاره على الجيش الأحمر. إن احتلال منطقة فيلنا، والاستيلاء على شرق سيليزيا العليا، ودعم المتمردين في القسم المتبقي لألمانيا من هذا الإقليم، أكدت استعداد وارسو المبدئي للتوسع الأرضي على حساب الرايش الألماني، وبالتعاون مع فرنسا.

كانت المقاومة العسكرية لاحتلال الرور مستحيلة في هذا الوضع، لذلك دعا مستشار الرايش فيلهلم كون، الذي حل يوم 22 تشرين الثاني عام 1922 محل جوزيف فيرث، إلى «المقاومة السلبية». لكنه كان على الرايش تمويل الإضراب العام المكلف، الذي قام به سكان المنطقة جميعهم، مع أنه لم يكن يعد في نهاية الأمر بأي نجاح، خاصة وأن تمويل العصيان المدني بنقود بنك الرايش الورقية دمر العملة الألمانية والاقتصاد الوطني الألماني. أخيرا، عين رئيس الرايش إيبرت يوم 13 آب 1922 الليبرالي شتريزيمان، رئيس الحزب شعب الألماني، خلفا للمستشار الفاشل كونو.

لا نستطيع إعادة تركيب الدور الذي لعبه نيدرماير خلال هذه الأزمة. لقد كان مطلع عام 1923 في برلين وشارك في محادثات مع مسؤول مختص بالقضايا البحرية في السفارة السوفييتية اسمه السري «ميخائيل بتروف». تلك

كانت صلة غامضة، لأن انتفاضات شيوعية نشبت وسط ألمانيا بعد وقف «نضال الرور»، كان بتروف قد زودها بالسلاح خريف عام 1923. لكنه يبدو أن نيدرماير حافظ على صلات معه طيلة عام 1923، لذلك كتب مطلع عام 1924 معتذرا: «منذ أن بدأ السيد بتروف عمله في برلين، أي منذ عام ونصف العام، انهمك في شراء أسلحة صغيرة العيار (أسلحة مشاة)، خصص جزء منها للجان الإضراب العام التشيكية، وجزء آخر لمدارس مختلفة في الجيش الأحمر . . . مع أنه كان قد أكد خطيا أن جميع الأسلحة التي اشتراها أرسلت إلى روسيا»[33].

لا شك في أن القيادة السوفياتية رأت عام 1923، عام الأزمة، في نيدرماير ممثل برلين كامل الصلاحيات. هذا ما تم تذكير بروكدورف ـ رانتساو به نهاية شهر شباط عام 1923 خلال واحدة من محادثاته الأولى في موسكو. فقد شرح وزير الخارجية تشيتشيرين للأمير أن البلاشفة وفي مقدمهم تروتسكي يرون في التعاون التسليحي السياسي مجال العلاقات الثنائية الألمانية / الروسية الأكثر أهمية. وأبلغه أن نيدرماير قطع وعودا حيال الجانب السوفييتي، الذي يريد التمسك بها. رد بروكدورف ـ رانتساو بحدة، فرجا وزير الخارجية السوفييتي أن لا يعود أبدا إلى ذكر اسم نيدرماير أثناء مفاوضات جدية، وأخبره أنه لم يأت إلى موسكو إلا ليمنع المفاوضات عديمة الجدوى، المستهترة والخالية من المسؤولية، التي يجريها هذا الواهم والمغامر، التي تسئ إلينا عسكريا وسياسيا في آن معا، ويتولى هو شخصيا مفاوضات معقولة.

لكن قيادة جيش الرايش استمرت في رعاية صلاتها السرية مع موسكو أثناء احتلال الرور، دون أية مراعاة للسفير الألماني. وسافر وفد بقيادة رئيس

33. حول هذه القضية التي لا تزال غامضة، انظر موقف نيدرماير من موسكو بتاريخ 24 كانون الثاني 1924. الأرشيف البروسي برقم ر 29286.

مكتب الوحدات، اللواء هاسه، إلى موسكو في شباط 1923. وفي 6 آذار لخص بروكدورف ـ رانتساو في مذكرة «سرية جدا» ما أخبره به لاحقا وزير الخارجية السوفييتي. كان تشيتشيرين قد استند مجددا على وعود قطعها نيدرماير عام 1923 لم يتم التقيد بها. ورد على تقويم نقدي قام به السفير ضد نيدرماير قائلا: «أعترف أن الرائد نيدرماير قد يكون تجاوز صلاحياته، لكنني أؤكد أن الجنرال هاسه وصفه لي، عندما كنت في برلين، كعسكري مجتهد إلى أبعد حد».

حاول بروكدورف الحيلولة دون قيام الوفد برحلة أخرى إلى موسكو، لعلمه أن الرحلات غير المنسقة تقود الألمان إلى وضع من يطلب الاسترحام، وتكشف للبلاشفة نقاط ضعف الرايش المرة تلو الأخرى. شارك سكرتير الدولة في وزارة الخارجية، آجو فون مالتسن، السفير تحفظاته، وكان يريد بدوره قطع الصلات العسكرية ومنع نيدرماير من القيام برحلة أخرى إلى موسكو. وأكد للسفير: «أنه سيفعل وسعه للحيلولة دون رحلة العسكري نويمان إلى موسكو، وأنه لم يترك شكا في ذلك لدى رئيس الشركة (فون سيكت)».

نجحت محاولة بروكدورف ـ رانتساو أخذ العلاقات العسكرية / السياسية بيديه لبعض الوقت في صيف عام 1923. في 30 تموز 1923 التقى رئيس إدارة الأسطول الجوي الأحمر، صهر تروتسكي أركادي روزنجولتس، ـ اسمه السري راشين ـ مع مستشار الرايش في منزل شقيق بروكدورف ـ رانتساو الخاص في برلين. وكان السفير قد هيأ المستشار لهذا اللقاء في مذكرة أخرى «سرية جدا»، أطلق فيها وصف «سليمة» على سياسة فيرث الروسية، مع أن تنفيذها بواسطة العسكر كان خاطئا كل الخطأ في نظره. دام اللقاء السري بين صهر تروتسكي ومستشار الرايش أكثر من ساعتين، ولم ينته إلا بعد منتصف الليل. كان جو اللقاء تلقائيا ووديا، واستنتج بروكدورف من إشارة أدلى بها الشريك الروسي في المحادثات أن السوفييت سيكونون على

استعداد لعقد اتفاقات سياسية: «بمجرد أن يتعلق الأمر ببولونيا». لكنه، على العكس من سيكت وفيرث، كان يرى في عمل مشترك ضد بولونيا آخر رد فعل ممكن ضد هجوم بولوني، ويعتقد أنه لا يجوز أن يكون غير تهديد رادع موجه إلى وارسو، لكن محاولة السفير وضع نفسه في مركز العلاقات العسكرية الألمانية / السوفياتية فشلت. وفي نهاية المحادثة عبر روزنجولتس عن رغبته في أن يرسل مستشار الرايش ممثلا عن وزارة جيش الرايش إلى موسكو. صحيح أن بروكدورف اعترض فورا، لكنه كان واضحا أن رجال الكرملين المهمين يفضلون علاقات مباشرة وسرية مع الجيش.

تفاقمت الأزمة صيف عام 1923، فقد زادت المقاومة السلبية توترات الرايش السياسية الداخلية، وخدم الاحتلال الفرنسي مواقف الدوائر اليمينية المتطرفة، التي أرادت تفجير الصراع العنيف بأعمالها التخريبية وشعاراتها القومية. كان التضخم المتسارع يدمر العملة الألمانية والطبقة الوسطى بالدرجة الأولى، ويشيع عدم الاستقرار في بقية مجتمع البرجوازية الألمانية. من أجل السيطرة على القوى اليمينية ووضع الأسس الضرورية لاستقرار تدريجي، كان لا بد من إنهاء المقاومة السلبية في حوض الرور وإجراء مفاوضات مع القوى الغربية حول التعويضات، وضمان استقرار العملة، وإعادة إنعاش الاقتصاد خطوة بعد أخرى.

قبل يوم من تعيين شتريزيمان مستشارا للرايش، في 11 آب 1923، أرسل كارل هاوسهوفر كتابه الجديد «جيو سياسة تقرير المصير الذاتي» إلى أوسكار فون نيدرماير، الذي لم يستطع قراءته أول الأمر، ولم يرسل قبل 6 أيلول رسالة تعبر عن شكره وترجو الأستاذ إبداء التفهم لأنه لم يقرأ كتابه ويقومه فور تلقيه: «إن عملي، الذي يتضخم إلى درجة مخيفة، ويشهد كل يوم «محرضات» جديدة بفضل أحداث السياسة الداخلية المختلفة، يستأثر بي ويجعل عملي الفكري أمرا مستحيلا ولو لساعات قليلة يوميا». ثم يعلمه أنه سيلفت أنظار «أصدقائنا الشرقيين» إلى الكتاب: «إلى هذا، فإنني كثير التنقل

في هذه الأيام، لذلك لا أستطيع إخبارك بموعد تقريبي أناقشه فيه، وإن كنت سألفت نظرهم إليه بكل طيبة خاطر».

لم تكن أزمة ألمانيا وحدها السبب في كثرة حركة نيدرماير، التي عادت كذلك إلى تغيرات مجمل الوضع الدولي. وعلى سبيل المثال، فإن هزة أرضية هائلة دمرت طوكيو في الأول من أيلول 1923، كان لها آثار كثيرة محتملة على السياسة الدولية. وقد ذكر نيدرماير هذه الكارثة في رسالته إلى هاوسهوفر يوم السادس من الشهر ذاته: «أثر حادث مفزع وقع في الفترة المنصرمة على مسار الأحداث في الشرق الأقصى بطريقة لم تكن في حسباننا. وإذا كنت لا أظن أنه سيفضي إلى تبدلات سياسية جذرية، فإنني أعتقد أنه سيوقف التطورات، التي يجب أن يكون لنا مصلحة كبيرة في تسريعها».

كان نيدرماير وهاوسهوفر ينشدان تقاربا يابانيا / روسيا. أما الآن، فكان من الصعب معرفة ما إذا كانت اليابان لن تتجه، رغم كل شيء، إلى القوى الغربية. ومع أن نيدرماير لم يكن يستطيع آنذاك تجاهل نتائج المصاب الجلل، فإنه انطلق من أن اليابان ستنشغل بنفسها لبعض الوقت: «إنها الآن أشد ضعفا مما كانت عليه من قبل، وسيجعلها التهديد المعادي تبحث الآن بسرعة أكبر عن صديق أو عن دعم، الأمر الذي تعيه القوى الأنجلو ساكسونية أيضا».

كانت صلات نيدرماير مع الجهات السوفييتية أقل كثافة في صيف 1923 من السابق. وقد أعلم هاوسهوفر إنني لم أر صديقنا الدكتور «م» ـ مؤتمن راديك دكتور ميخالسكي ـ منذ أشهر، وعليّ أن أكون حذرا جدا لأنه يوجد في وزارة شتريزيمان الجديدة وزراء ديموقراطيون اجتماعيون لهم موقف نقدي من الصلات العسكرية السرية مع روسيا السوفييتية. وأضاف: «على المرء أن ينسحب في الوضع السياسي الداخلي والخارجي الراهن أكثر من أي

وقت مضى إلى تحت قوقعته». وألمح لأول مرة إلى أنه كان يفضل القيام بنشاط علمي على الأنشطة التي مارسها إلى الآن، وقال: «كم أحسدك وأتمنى أن أكون في مكانك، من أجل التمتع الهدوء وتجميع أفكاري والإسهام في جيوسياسة الشرق الأدنى والأوسط. فمتى ستلوّح لي بيدها حرية الفكر والعمل هذه؟ إن علي الاستمرار في حمل النير الاختياري الذي ارتضيته لنفسي في سبيل المصلحة العليا».

كتب نيدرماير بعد ستة أيام، في 12 أيلول 1923، من جديد إلى هاوسهوفر، الذي كان قد وافاه في الفترة المنصرمة بتقويم للنتائج السياسية التي قد تترتب على الهزة الأرضية الكارثية، بعث به بدوره إلى ميخالسكي، رغم أنه لم يكن متأكدا من وجوده في برلين. لكن نيدرماير توقع أن يتمكن من مناقشة التفاصيل في موسكو ذاتها: «آمل أن نعالج في وقت غير بعيد مع القوم الملائمين هناك الأسئلة التي تشغلنا معا، وأن نستطيع الوصول بها إلى حل مرض، لأنه لا يمكن عمل الكثير ضمن الدائرة الراهنة في برلين».

واصل نيدرماير اللعب بفكرة جعل المسار الأكاديمي بديلا للوظيفة العسكرية. واعتقد أنه سيكون بوسعه إنجاز عمل علمي، كمراقب للسياسة الإنجليزية وكخبير في تاريخ بريطانيا الكولونيالي. لكنه لم ينجح في ترتيب أفكاره خلال شهر أيلول من عام 1923. لقد كانت الأفكار المرتبطة بروسيا وإنجلترا، بالإسلام والقومية والبلشفية «ككتلة تتلاطم بوحشية» في رأسه. وقد طلب تفهم هاوسهوفر وأعلن معترفا: «صدقوني إنه ليس سهلا أن يسمو المرء بنفسه فوق كل شيء اليوم، كي يرى أرضية الأشياء، إذا كان له نصيب في هذه الحركات جميعها بفضل عمله الخاص. وإنني لأباغت نفسي أحيانا وهي تتابع أفكارا (سياسية خارجية وعلمية) ثورية».

عكست «كتلة أفكار نيدرماير المتلاطمة بوحشية» في خريف عام 1923 فقدان التوجه السياسي والاجتماعي والروحي في ألمانيا. عندما أعدمت

مفرزة فرنسية في 26 أيار 1923 الطالب ألبرت ليو شلاجيتر رميا بالرصاص، لأنه ألقي القبض عليه وهو يقوم بعمل تخريبي، أعلن الحزب النازي، اليميني المتطرف الذي كان ينتشر بسرعة، لكنه لم يكن له بعد غير أهمية محلية تقتصر على ميونيخ، أنه شهيد حركته. ووضع كارل راديك، شريك نيدرماير السوفييتي، يد الثورة العالمية على القتيل، ودعا علنا إلى حلف بين القوميين الألمان والبلاشفة. وقال من موسكو: «سنفعل كل شيء حتى لا يذهب رجال كشلاجيتر إلى العدم، وكي يذهب هؤلاء إلى مستقبل أفضل للبشرية جمعاء». ثم تلت كلمات توضح لماذا اعتبر نيدرماير عام 1923 أفكاره «كتلة تتلاطم بوحشية». ألم يكن بوسعه هو نفسه طرح أسئلة راديك؟. «ضد من سيناضل أبناء الشعب الألماني: ضد رأس مال الائتلاف أم الشعب الروسي؟. ومع من يجب عليهم ربط أنفسهم؟ مع العمال والفلاحين الروس في سبيل التحرر المشترك من نير رأس مال الائتلاف أم مع هذا في سبيل استعباد الشعبين الألماني والروسي؟».

كانت موسكو تصب عام 1923 الزيت على النار بمثل هذه الكلمات. وقد فتح نداء راديك الذكي نقاشا حارا لدى مثقفي الدوائر اليسارية واليمينية، كان موضوعه: هل هناك إمكانية لقيام بلشفية قومية ألمانية؟ ألم يعتبر الأمير بروكدورف ـ رانتساو «البلشفية المحلية» ممكنة، بله حتمية في ألمانيا عام 1922؟. لم يفقد منظور تعاون عنيف وثوري ألماني / سوفييتي ضد الغرب جدارته الواقعية إلا بعد أن وجد حل سياسي لأزمة الرور، عقب بدء حكومة شتريزيمان عملها يوم 13 آب 1923.

رأت القيادة البلشفية في موسكو غنيمتها تبتعد، بعد تولى شتريزيمان منصبه، فقررت المغامرة بانقلاب في ألمانيا التي زلزلتها الفوضى السياسية والاجتماعية، وأعلنت الخط الجديد بعد يوم من استقالة حكومة كونو، حين كتبت البرافدا افتتاحية عنوانها «ألمانيا عشية الثورة»، ثم أطلق تروتسكي وزينوفييف مطلع تشرين الأول عام 1923 بمعونة خبراء حرب أهلية سوفييت

انتفاضات قادها الشيوعيون في ساكسن وتورينجن، لكنها انهارت بعد وقت قصير، مثلما انهارت محاولة انتفاضة شيوعية في هامبورج، عندما وضع جيش الرايش بكل قسوة وتصميم نهاية سريعة «لأكتوبر الألماني». عاد خبراء الثورة السوفييت يجرون أذيال الفشل إلى موسكو، قبل أن ينقلوا نقطة ثقل عملهم إلى الصين في الحقبة التالية[34].

كان من الصعب سبر أغوار اتصالات نيدرماير مع السوفييت خلال خريف عام 1923، مثلما كانت صعبا سبر أغوار أنشطته خلال أزمة الرور الأخيرة. ليس واضحا كذلك إن كانت لديه اتصالات مع الاشتراكيين القوميين في ميونيخ. وهل شارك كرجل بافاري يحظى بثقة سيكت حين أجرى رئيس قيادة الجيش مطلع عام 1923 اتصالا مع لودندورف وهتلر في ميونيخ؟. هل كان حاضرا عندما التقى سيكت مع قائد الاشتراكيين القوميين يوم 11 آذار 1923؟. مهما يكن من أمر، فقد انتهت محادثات قيادة الجيش مع هتلر نهاية سلبية، لأن هتلر رفض بشدة في كتاب «كفاحي» السياسة التي روج لها سيكت حول التعاون مع روسيا السوفييتية، مثلما رفض «جيوسياسة تقرير المصير الذاتي» التي مثلها هاوسهوفر، بما تضمنته من دعم عالمي واسع لحركات الثورة القومية. بل إن حركة هتلر المتطرفة هاجمت سيكت في خريف عام 1923 بشدة، عندما تخلت حكومة الرايش يوم 26 أيلول عن المقاومة السلبية ضد فرنسا، وفرضت حكومة بافاريا في اليوم نفسه حالة الطوارئ احتجاجا على هذا القرار. حين فرضت حكومة الرايش بدورها حالة الطوارئ في كامل منطقة الرايش، ونقلت السلطة التنفيذية إلى جيش الرايش بقيادة سيكت، غدت ألمانيا دكتاتورية عسكرية، وشتمت جريدة هتلر الكفاحية «المراقب الشعبي» يوم 29 أيلول 1923 بألفاظ نابية «الدكتاتورين شتريزيمان ـ سيكت»، وبدا ضباط الرايش الموالون لسيكت كشوكة في عين

34. دافيد دالين: الجاسوسية السوفييتية. مبادئ وممارسات. كولن 1956، ص 95.

جريدة النازيين السيئة التحرير، التي هاجمتهم: «لأنهم يرفضون أي تحذير يرى في سيكت رفيق فكر لجريدة اليوم اليهودية البرلينية، التي يكتب فيها. ويرفضون كذلك تذكيرهم أن زوجتي سيكت وستريزيمان يهوديتان، وتؤثران عليهما (حملت زوجة سيكت أسم أسرتها جاكوبسون، وقد ولدت عام 1872 في فرانكفورت على نهر الأودر، وتم تسجيلها كموسوية في دائرة الأحوال المدنية، ثم تبناها في فترة لاحقة شخص اسمه فابيان). لم يكن ضباط الرايش الموالون لسيكت في نظر الجريدة النازية غير عملاء رجل تتلاعب به زوجته اليهودية: «لكن ثمة حقيقة لا تقبل التصديق هي أن عددا كبيرا من الضباط يؤمنون اليوم أيضا أن سيكت رجل قومي، ويدعمون قضيته بقوة». أخيرا، تنتهي المقالة التحريضية بالقول: «لا مراء في أن القول التالي ينطبق اليوم على الشعب الألماني: يصيب الله بالعمى من يريد الله تحطيمه!. فهو ينطبق على الضباط الكثيرين الذين يدعمون جزّارهم، لأنهم ليسوا سياسيين حتى العظم».

عندما أقسمت الفرقة السابعة «البافارية» في جيش الرايش، يمين الولاء لدولة بافاريا يوم 22 تشرين الأول عام 1923، وقف اللواء فرايهر كريس فون كريسشتاين، قائد حملة قناة السويس عام 1915 وبعثة القوقاز عام 1918، كجنرال بافاري وحيد إلى جانب سيكت وحكومة الرايش. لقد كانت وحدة الجيش والرايش مهددة الآن، فبأية طريقة ساند نيدرماير مرشده سيكت خلال النزاع مع حكومة دولة بافاريا؟. هذا ما لا نستطيع معرفته، وإن كانت صلته التي بقيت وثيقة مع سيكت خلال السنوات التالية تجعلنا نستنتج أنه كان مواليا لرئيس قيادة الجيش في تشرين الأول والثاني من عام 1923.

عندما تراجعت في النهاية حكومة بافاريا وقيادة الجيش البافاري، وأنهتا أفعالهما الخيانية، قام قائد النازيين المعزول تماما بمحاولة انتفاض يائسة يوم 9 تشرين الثاني 1923 للاستيلاء على السلطة في ميونيخ، فقضي على محاولته أمام قاعة قادة الحرب، ثم سجن أشهر قليلة في لاندسبرج على الليش، بعد

محاكمته بجرم الخيانة العظمى، وقاسمه سجنه سكرتيره الخاص رودلف هيس.

زار هاوسهوفر صديقه الشاب ثماني مرات في سجن لاندسبرج بين 24 حزيران و12 تشرين الثاني 1924. لم تكن الرحلة بعيدة بين منزله في الهارتشيمل على بحيرة الآمر وبين مدينة العصر الوسيط على الليش. كان هاوسهوفر يبقى اليوم بكامله تقريبا عند هيس، الذي كان هتلر يملي عليه مخطوطته الدعائية والبرنامجية المسماة «كفاحي». في تلك الأشهر، كان هتلر يقرأ كتاب فريدريش راتسل «الجغرافيا السياسية»، التي استعارها إما من مكتبة السجن أو من هاوسهوفر. أحضر هاوسهوفر كذلك كتابا درسه لينين ورواديك وقادة الجيش الأحمر ونيدرماير بعناية، هو واحد من الكتب القليلة التي أراد ستالين عام 1941 أخذها من مكتبة الكرملين إلى مقره التبادلي في سامارا. ومع أن هتلر أكثر من الاستشهاد بكلاوزيفيتز، فإنه لم يقرأ إطلاقا كتاب «عن الحرب» بعناية، بخلاف لينين ورواديك ونيدرماير.

كشف حساب مبدئي

ظهر نيدرماير في تشرين الثاني عام 1923 مرة أخرى في موسكو لقد غادر قوقعته وسافر تحت اسم مستعار هو «سيبيرت»، اسم زوجته قبل الزواج منه، التي كان قد تزوجها في 29 تشرين الثاني عام 1922، دون أن تكون هناك أية إشارة إلى زمان ومكان أول لقاء بين الرائد، الذي يقال أنه كان ذا سحر قوي على النساء، وبين زوجته، التي جاءت من ظروف متواضعة، وفق معايير الزمن الاجتماعية وحكم أسرة الزوج البرجوازية[35]. وقد رافقت درب زوجها الحياتي إلى ما بعد موته، دون أن يمكن التعرف على مشتركات المجال الشخصي والاجتماعي التي قاما بينهما وأدامت

35. هذا ما قاله الحفيد أوسكار نيدرماير يوم 8 شباط عام 1998 في ميونيخ.

زواجهما، الذي لم ينجبا خلاله أطفالا. لم يكن لدى بيرتا فون نيدرماير اهتمامات شخصية واضحة، فقد ولدت في بروسيا الشرقية، وحين تزوجت، لم تقم على الإطلاق علاقة صحيحة بينها وبين أقرباء زوجها في بافاريا الدنيا. وكان لديها مثل زوجها نقطة ضعف هي تغيير اسمها، جعلتها تعلق أهمية كبيرة على ضرورة مخاطبتها باسم «لوته»، ربما لأن اختصار اسم «شارلوت» بدا لها أكثر وجاهة من اسمها الأول الحقيقي برتا. وقد أعتقد جنود فرقة زوجها، الذي جاؤا من آسيا الوسطى خلال الحرب العالمية الثانية، أنها جورجية، ولقب ضباط أركانه الظاهرة الأنيقة ذات الشعر الأبيض بـ«الأميرة»[36].

عندما سافر أوسكار فون نيدرماير ألياس سيبريت إلى موسكو نهاية عام 1923، كان مؤكدا أن سيكت وقيادة جيش الرايش يريدون التمسك بالتعاون الجيوستراتيجي مع روسيا، رغم الانتفاضات الشيوعية في ألمانيا خلال شهر تشرين الأول، على أن يتم تركيزها مستقبلا على مواضيع تسليح وتدريب معرّفة بوضوح، خاصة وأن محاولات التحريض والثورة لم تعد راهنة في مجال النفوذ البريطاني، بعد موت ساسة المهاجر من الأتراك الفتيان وتوطد الأوضاع في الشرق منذ 1922، واقتناع الجميع أن الأمل الغائم بإمكانية تصحيح نتائج الحرب العالمية الأولى في فترة قصيرة نسبيا عبر دعم الانتفاضات وحركات الحروب الشعبية لم يكن غير مجرد وهم ليس إلا، منذ عام 1923.

بذل نيدرماير جهودا حقيقية لمعالجة تجارب أعوام 1919 ـ 1923 فكريا. وقد نجح في ترتيب أفكاره، التي صاغها في نص طويل بعنوان «الأسس الجيوسياسية للمجال الأوروآسيوي / الأفريقي الانتقالي»، أنهاه يوم 16 كانون الأول عام 1923، وثمة نسخة منه في تركة هانس فون سيكت،

36. حسب أقوال زوجة مرافق نيدرماير العقيد المتقاعد كونراد بار في آب 2001.

بينما ذهبت نسخة أخرى إلى هاوسهوفر، الذي نشر عمل صديقه في عدد تكريمي أصدره عام 1925 على شرف أستاذهما المشترك دريجالسكي.

أقنعت تجارب 1922/ 1923 نيدرماير باستحالة وقوع تبدل قصير الأجل في توازن القوى الدولية لصالح الرايش الألماني، لأن السيطرة البريطانية على مواقع الحسم في الشرقين الأدنى والأوسط غدت مضمونة في المدى المنظور، وأثبتت سياسة «فرق تسد»، تلك الطريقة المجربة والقديمة التي مارستها السيطرة الأنجلوساكسونية، جدواها وتفوقها في التعامل مع حركات التمرد الثورية وطموحات التوحيد القومية لدى شعوب الشرق. لم ير نيدرماير أيضا أي فرصة من الناحية الجيوسياسية لنجاح حركة التوحيد الطورانية التي دعا إليها أنور باشا.

لكن نقطة انطلاق تحليله وخطه الموجه بقيت التناقض بين قوة السوفييت القارية والسيطرة البحرية الأنجلوساكسونية. تنشر الامبراطورية البحرية العالمية كما ينشرالاتحاد السوفييتي المقيد أوراسيا، نفوذهما السياسي والاجتماعي والروحي في الشرق الأدنى والأوسط، اللذين يشكلان «المجال الأوراسي / الأفريقي الانتقالي»، حيث تفتقر شعوب الشرق تفتقر إلى الاستقلال الاقتصادي والسياسي عن الهيمنة الأنجلوساكسونية، وكانت «النزعة الصناعية الغربية» جلية في الشرقين الأدنى والأوسط، وأخذت قبل كل شيء شكل تحديث متسارع بقى محدودا على الأصعدة القطاعية: «تريد هذه البلدان جميعها بناء صناعة سلاح تزودها بأدوات قتال حديثة. وهنا، تبلغ الفكرة الصناعية أوجها».

أما العامل الثاني، الذي يؤثر في المنطقة الواقعة بين القاهرة وكراتشي، وبين عدن وطشقند، فهو البلشفية، التي كان تقويم نيدرماير لها إيجابيا جدا، لكونها بدت له «كتقدم وتطور انتقال إلى حقبة يتمتع الشعب فيها بالصحة، رغم ما أحدثته من تخريب»، بل إن البلشفية يمكن أن تكون ناجحة، إذا ما

اتخذت شكلا يلائم طبيعة الشرقيين وطريقتهم في الحياة. «إذا أهلت البلشفية نفسها لتطوير أشكال من الحياة تتفق مع الحاجات الآسيوية أكثر من الأشكال التي قامت إلى الآن، فإنه يبدو محتملا أن تقبلها الشعوب المحمدية إلى درجة معينة».

أية نتائج ستترتب على ذلك بالنسبة إلى الجيوسياسة الألمانية؟. نصح نيدرماير أول الأمر بتفادي أخطاء زمن ما قبل 1914 السياسية، وقال إن من غير الجائز أن تتمسك ألمانيا بتصور برلين / بغداد، الذي استهدف حشرها بين مجالي القوة البريطاني والروسي، وحرر الامبرطورية العالمية البريطانية من ضغط السوفييت، الذي يجب أن ينصب على شمال فارس وأفغانستان والهند. ثم حذر بإلحاح قائلا: «ليست بلدان الشرق الأدنى والأوسط حقل نشاط بالنسبة إلى السياسة الخارجية الألمانية، رغم جميع إغراءاتهما».

طرح نيدرماير عوضا عن ذلك فكرة تدعو إلى تركيز قوى الرايش السياسية والاقتصادية على التعاون مع مناطق يعزز وضعها الجيوسياسي صعود سياسي ألماني جديد. بمثل هذه الفكرة، كان من المحتم أن يدعو إلى بناء وتوسيع التعاون مع الاتحاد السوفييتي، الذي يقدر وحده فتح الباب أمام إمكانية إعادة النظر في نظام فرساي، بسبب وجود مصلحة مشتركة بين الألمان المهزومين والثوريين الروس، تتخطى الفروق الأيديولوجية بينهما، هي رغبتهما في تغيير الوضع الدولي. في هذا الأفق السياسي الدولي، قدم التعاون السري مع موسكو والدعم السري للأنشطة السوفييتية الفرصة لتقويض التفوق الأنجلوساكسوني داخل وخارج أوروبا ولإضعافه.

بتفكيره في مقولات البر والبحر، القوة القارية والسيطرة البحرية، وضع نيدرماير تخطيطات أولية لاستراتيجية غير مباشرة تعتمدها السياسة الألمانية ضد الامبراطورية العالمية البريطانية. وكان قد ذكر أعضاء «عصبة مقاتلي آسيا»، خبراء الشرق ومقاتلي الحرب العالمية الأولى، أن مستقبل ألمانيا

يرتبط بشدة بالسياسة الآسيوية التي تنتهجها روسيا السوفييتية. وحدد بطريقة جيدة نقطة انطلاق ملائمة بصورة خاصة لأية سياسة سوفييتية معادية لبريطانيا، عندما قال: «تنتمي أفغانستان إلى القارة الآسيوية، التي تعتبر روسيا قوتها المسيطرة اليوم أيضا، وهي بلد وبوابة العبور إلى الهند، التي لا زالت خاضعة اليوم لسيطرة بحرية معادية للقوى القارية». لا سبيل إلى زعزعة قوة الأنجلوساكسون العالمية في غير آسيا. «عندما ستعي هذه القارة ذات يوم قوتها وحقها في الحياة والملكية، وستأتي الدفعة الأولى من الشعب الروسي المفصول عن المياه الدافئة والذي سيستعيد قوته، سيبدأ غسق السيطرة الإنجليزية في آسيا، وسيكون بوسع بلد كأفغانستان لعب دور حاسم»[37].

37. أطروحة دكتوراه: أفغانستان في إطار الجيوسياسة الآسيوية. في: بين القوقاز وسينا. حولية عصبة مقاتلي آسيا، الجزء 4، 1929، ص 3 ـ 18.

obeikandl.com